



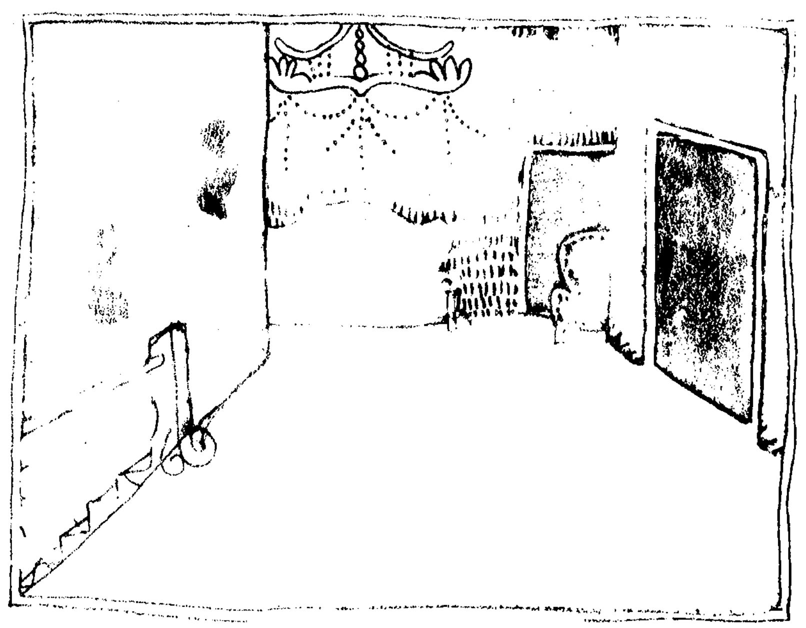
البارونه اوركزي

ترجمة: مجيد ياسين



الزهرة القرمزية





الفصل الثامن عشر
(الشعار الغامض)

كان الوقت ضحى حين استيقظت مرغريت متجددة النشاط بعد نوم طويل. جاءتها لويز ببعض الحليب الطازج وصحن فواكه فتناولت فطور الفواكه هذا بشهية مفتوحة.

ازدحمت الافكار في رأسها وهي تمضغ حبات العنب، وكان اغلب الافكار يعد وراء طيف زوجها، بقامته الطويلة المنتصبة، وهو يمتطي حصانه وينطلق قبل اكثر من خمس ساعات.

وحملت اليها لويز خبر عودة التابع ومعه الجواد «سلطان» تاركاً السير بيري في لندن. وقال التابع انه يعتقد سيده سيركب اليخت الذي كان راسياً على مقربة من [جسر لندن]. إذن فقد قطع السير بيري كل هذه المسافة ثم قابل [بريغز] قبطان اليخت «حلم اليقظة» واعاد التابع الى

ريشموند بصحبة الجواد سلطان.

حير هذا الخبر مرغريت اكثر من السابق. ترى الى اين يمكن ان يتوجه السير بيري الان باليخت؟ قال انه يسعى من أجل آرمان. حسناً! السير بيري له اصدقاء متنفذون في كل مكان. ربما سيذهب الى «غرينتش» أو. . . لكن مرغريت كفت عن التفكير بالامر. كل شيء سيتضح قريباً: هو قال انه سيعود وأنه سيتذكر.،

ان يوماً طويلا مملا ينتظر مرغريت. كانت تنتظر زيارة من زميلة الدراسة القديمة، سوزان دو تورناي الصغيرة. فقد استغلت وجود ولي العهد لترجو من الكونتيسة بطريقة محرجة مغلقة بالمرح. ان تسمح لسوزان بقضاء اليوم معها. وكان ان رحب سموه الملكي بالفكرة بقوة، معلنا انه سيسره ان يزور السيدتين في عصر اليوم. فلم تجرؤ الكونتيسة على الرفض ووجدت نفسها تعد بارسال سوزان لقضاء يوم طويل وسعيد مع صديقتها في ريشموند.

راحت مرغريت تنتظرها بلهفة. فقد كانت تحن الى استعادة ذكريات ايام الدراسة مع الصبية. وشعرت بانها تفضل صحبة سوزان على ماعداها، وبأنهما يمكن ان تتجولا سوية في ارجاء الحديقة القديمة الجميلة ومتنزه الغزلان او تتمشيان على شاطيء النهر.

لكن سوزان لم تأت لحد الان، وكانت مرغريت تتهيأ للنزول بعدما لبست ثياباً مناسبة. فبدت مثل صبية في ثوب الموسلين البسيط المزين عند الخصر بحزام من قماش حريري شفاف أزرق، ولفت حول عنقها شالا رقيقا جميلا زينته عند الصدر بباقة من ورود قرمزية صغيرة.

اجتازت الروتاق العريض الممتد امام جناحها ووقفت برهة عند اعلى السلم الجميل المصنوع من خشب البلوط الذي يقع الى يساره جناح زوجها المؤلف منم عدة غرف لم تدخلها قط من قبل .

ويضم الجناح غرفة نوم وصالة استقبال وفي نهايته غرفة مكتب صغيرة مقفلة البـاب دومـاً حين لايستخدمها السير بيري وكان تابعه الخاص الامين [فرانك] هو المسؤول عن هذه الغرفة ولم يكن السير بيري يسمح لاحد بدخول الغرفة . على ان سيدة القصر لم تفكر قط بدخول **الغرفة** كما ان أياً من الخدم لم يجرؤ على كسر هذه القاعدة الراسخة .

وكـانت مرغـريت ، بما انـطوت عليه من احتقار لزوجها في الاونة الاخيرة ، تسخر من السرية التي يحيط بها غرفته الخاصة هذه ، وتعلن ضاحكة ان زوجها يتشدد في ابعاد كافة العيون عن مومعته خشية ان يكتشف الاخرون مدى تفاهة مايدور من «دراسة وبحث» بين جدرانها الاربعـة . ولاشك ان الكرسي ذا المساند المريح المخصص لاغفاءات السير بيري **الحلوة** هو أثمن ما في الغرفة من أثاث !

هذا ماكـان يدور في رأس مرغريت وهي تنظر الى الرواق الطويل الظاهر ان فرانك كان مشغولا بترتيب غرف سيده ، تاركا ابواب الغرف كلها مفتوحة ، بما فيها غرفة المكتب .

وفجأة تملك مرغريت فضول طفولي متأجج لان تختلس نظرة الى صومعة السير بيري . طبيعي ان منع الدخول لايشملها ولن يجرؤ فرانك على معارضتها بالطبع . ومع ذلك حبذت ان يكون التابع مشغولا في احدى الغرف بحيث تستطيع ان تلقي نظرة سريعة سرا دون ان يتنبه اليها .

عبرت الـرواق على اطـراف اصـابعهـا. ومثـل زوجة «ذي اللحية الزرقاء» وقفت على عتبة الباب راجفة وهي بين اللهفة والعجب، حائرة مترددة.

كان الباب موارباً، فلم تستطع رؤية شيء في الداخل. فقدفعته على مهل فلم تسمع صوتاً. واضح ان فرانك لم يكن في الغرفة فدخلت بجرأة.

فرجئت ببساطة الغرفة ومافيها: ستائر سميكلاة داكنة. قطع أثاث من خشب البلوط الثقيل. خارطـة .او خارطتان على الجدار لم يكن في الغرفة مايذكرها برجل الصالونات الكسول، اتلمغرم بسباقات الخيل، ملك المودة الشديد التأنق... بصورة السير بيري بلاكني.

لم يكن هنـاكماينم عن سرعـة المغـادرة كل شيء في مكـانه، فلا قصـاصـة ورق على الارض ولاخـزانة مفتوحة ومتروكة كانت الستائر مسحوبة عن النافذة المفتوحة التي راح هواء الصباح المنعش ينساب منها.

في وسط الغرفة، مقابل النافذة رقدت طاولة كتابة ثقيلة تبدوو عليها آثار القدم، فيما انتصبت الى يسار الطاولة لوحة تصل الى السقف تقريباً لسيدة يحيط بها اطار رائع. لوحة بارعة الرسم تحمل توقيع [بوشيه]. انها والدة بيري.

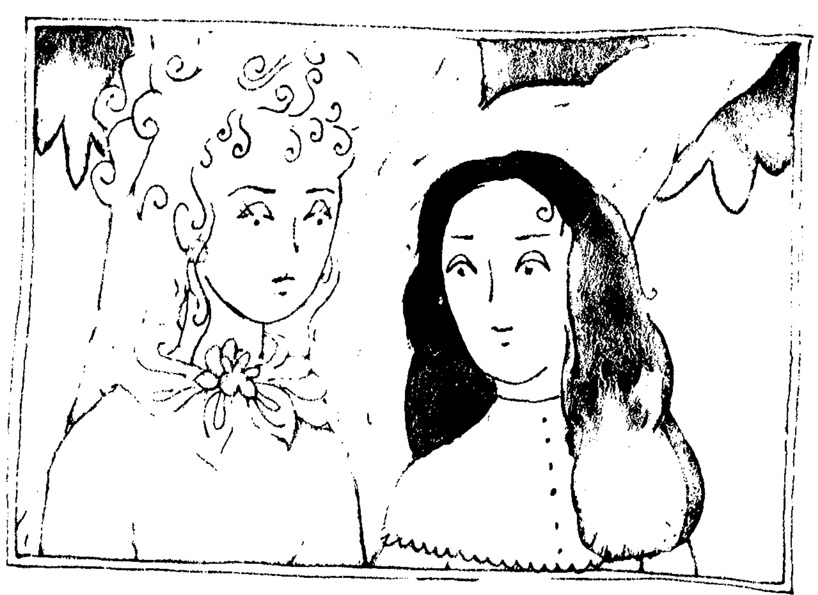
لم تعـرف مرغريت عنها سوى انها توفيت في الخارج عليلة الجسد والعقـل حين كان بيري يعد صبيا. لابد انها كانت بارعة الجمال يوم رسمهـا بوشيه. وعنـدمـا تطلعت مرغـريت الى اللوحة ادهشها الشبه المذهل بين الام وابنها نفس الجبهة التي يُعلوها شعر اشقر اجعد ناعم

وغـزير. نفس العينـين الزرقاوين الغائرتين الخاملتين يعلوهما حاجبان مستقيمان منتظمان. وتبدو في تلكما العينين نفس الحيوية المختفية وراء الخمول الظاهر. ونفس العاطفة الجياشة الكامنة التي كانت تشع من وجه بيري في الايام الخوالي، قبل زواجهما، والتي لاحظتها مرغريت مرة اخرى فجر اليوم عندما اقتربت منه كثيرا وكلمته بصوت رقيق. راحت تنظر حولها في غير اتجاه معين انها تشعر بحيرة مريعة وخوف مجهول امام هذا الغموض الغريب الذي لايفهم. شعرت فجأة بالبرد والضيق في هذه الغـرفة القاسية المظلمة. فالجدران عارية من الصور باستثناء لوحـة بوشيه وخـارطتـين لفـرنسـا: واحدة للساحل الشمالي والاخرى لضواحي باريس. تساءلت: ترى ماذا يريد السير بيري بهاتين الخارطتين؟

بدأت تشعر بصداع فتحولت عن غرفة «ذي اللحية الزرقاء» الغريبة هذه التي دخلتها ولم تفهم منها شيئاً. لم ترد ان يراها فرانك هناك فالقت نظرة اخيرة قبل التوجه الى الباب. وبينما هي ماضية الى الباب اصطدم قدمها بشيء صغير على البساط بجانب الطاولة فتدحرج امامها.

انحنت والتقطته واذا به خاتم ذهبي ثقيل ذو سطح مستو نقش عليه شعار صغير. قلبته بين اصابعها ثم تأملت الشعار المنقوش. كان على هيئة زهرة صغيرة نجمية الشكل، شكل رأته بوضوح مرتين من قبل: مرة في دار الاوبرا ومرة في حفلة اللورد غرينفيل





الفصل التاسع عشر

(الزهرة القرمزية)

لم تدر مرغريت نفسها في اية لحظة من اللحظات بدأ الشك يساورها. خرجت من الغرفة راكضة ويدها مطبقة على الخاتم. ومنها الى السلم فالحديقة. هناك في العزلة التامة، وسط الزهور والنهر والطيور، استطاعت ان تتأمل الخاتم وتدرس الشعار عن كثب.

جلست في ظل شجرة جميز عملاقة وراحت تنظر ببلاهة الى سطح الخاتم والزهرة النجمية الصغيرة المحفورة عليه. ياه! ياللسخف! انها تحلم، فاعصابها متوترة والا ماتوهمت ان كل الدلائل والغوامض واضحة بتفاصيلها الدقيقة. أليس كل الناس معجبين بالزهرة القرمزية، شعار ذلك البطل الغامض؟

ألم تطرز هي الشعار على بعض ثيابها؟ وتصوغه مشبكاً من الذهب

والاحجار الكريمة تضعه في شعرها؟ فما الغرابة ان يختار السير بيري هذا الشعار ليصنع منه خاتماً؟ ماأسهل ان يفعل هذا . . . أجل . . . ما اسهل ذلك . . . و . . . ثم . . . ماالعلاقة بين زوجها الغندور المزركش، ذي الثياب الفاخرة والتصرفات المهذبة الكسولة وبين المغامر الجسور الذي انقذ ضحايا فرنسية من تحت سمع وبصر قادة الثورة المتعطشين للدماء؟

راحت الافكار تعصف بها - وكان ذهنها مشلولاً . . . ولم تكن ترى شيئاً مما حولها ولذلك أجفلت حين جاء صوت فتي لطيف يناديها عبر الحديقة :

- عزيزتي . . . عزيزتي! اين أنت؟

وجاءت سوزان الصغيرة تركض، زاهية كوردة متفتحة، عيناها ترقصان فرحاً وخصلات شعرها الداكن تتطاير في هواء الصباح العذب ومضت تقول بمرح :

- اخبروني بأنك في الحديقة .

ثم القت بنفسها بين ذراعي مرغريت بحماس صبياني جميل وهي ماضية في الكلام :

- لذا جئت مسرعة لافاجئك . لم تتوقعي مجيئي بهذه السرعة، اليس كذلك ياصغيرتي مارغو العزيزة الحبيبة؟

أسرعت مرغريت تخفي الخاتم في طيات منديلها وتحاول التجاوب بمرح واسترخاء مع حماس الصبية فقالت باسمة :

- حقاً، ياحلوتي، ماأحلى ان اتمتع بوجودك . . . وطوال يوم جميل بأكمله . . . لن تشعري بالضجر؟

ـ أوه، ضجر! كيف يمكن أن تقولي كلاما مؤذياً كهذا يامارغو؟
عجباً! ألم نكن نفْرح لوجودنا وحدنا حين كنا في الدير القديم الحبيب؟
ـ ونحكي أسرارنا.

تأبطت الفتاتان ذراع الواحدة الاخرى وبدأت تتجولان في ارجاء الحديقة. قالت الصغيرة سوزان بحماس:
ـ آه! مااحلى بيتك ياعزيزتي مارغو، ولابد انك في غاية السعادة!
فقالت مرغريت، وهي ترسل زفرة حزينة صغيرة:
ـ أجل، حقاً! هل غير هذا ياحلوتي؟

ـ ما أحزن النبرة التي تتكلمين بها ياحبيبتي... آه، حسناً... افترض انك بعد زواجك لاتهتمين بحديث الاسرار معي بعد. آه! كانت عندنا عشرات من الاسرار ايام المدرسة! تذكرين؟ بعض الاسرار كنا نخفيها عن الاخت تيريزا، رغم انها كانت حبيبة الى القلب.
فقالت مرغريت بمرح:
ـ والان عندك سر واحد مهم للغاية، ها... ياصغيرتي؟
ستخبريني به تواً.

واضافت لما رأت وجه سوزان الجميل يحمر خجلاً:
ـ لا، لاتخجلي ياعزيزتي. صدقيني، لاشيء قط يدعو للخجل! انه رجل نبيل وحقيقي وواحد تفخر الواحدة بان يكون حبيبها و... زوجها
فردت عليها سوزان بصوت خافت:
ـ لست خجلانة ياعزيزتي واشعر بفخر عظيم اذا اسمعك تمتد حينه.
وأضافت، مستغرقة بالتفكير:

ـ أظن ان ماما ستوافق وسأكون. . . آه! سعيدة جدا، لكن طبعا لن افكر بشيء حتى يأتي بابا سالماً. . .

ذعرت مرغريت. والد سوزان! الكونت دو تورناي! احد الذين ستتعرض حياتها للخطر اذا نجح شوڤلان في معرفة هوية «الزهرة القرمزية».

لقد عرفت من الكونتيسة وكذلك من واحد او اثنين من اعضاء العصبة، ان زعيمهم الغامض قد وعد بشرفه بان يخرج الكونت دو تورناي المطارد من فرنسا سالما. لكن سوزان الصغيرة ـ التي لا يشغلها من الدنيا سوى سرها الصغير المهم ـ استمرت تثرثر، بينما سرحت مرغريت بأفكارها الى احداث الليلة الماضية:

الخطر الذي يتهدد آرمان، تهديد شوڤلان، خياره القاسي «إما . . . وإما» الذي اضطرت الى قبوله.

ثم دورها في الموضوع الذي كان سيبلغ ذروته بقاعة طعام اللورد غرينڤيل في الساعة الواحدة. حيث كان المفروض ان يكتشف مندوب الحكومة الفرنسية العنيد اخيرا من يكون «الزهرة القرمزية» هذا الرجل الغامض الذي تحدى صراحة جيشا من الجواسيس ووضع نفسه بكل جرأة في صف اعداء فرنسا لمجرد اللهو وحب المغامرة.

لم تسمع شيئا من شوڤلان منذ تلك الساعة. فاستنتجت انه اخفق في مسعاه، لكنها لم تعد تشعر بالقلق على آرمان لان زوجها وعدها بتأمين سلامة اخيها.

ولكن هاهي يتملكها فجأة ذعر عظيم لما فعلته. لم يخبرها شوڤلان بأي شيء. . . صحيح، لكنها تذكرت كم كان ساخراً وشريراً حين

ولكن هاهي يتملكها فجأة ذعر عظيم لما فعلته . لم يخبرها شوفلان بأي شيء . . . صحيح ، لكنها تذكرت كم كان ساخراً وشريراً حين استأذنها بالذهاب اخر مرة بعد الحفلة . اتراه اكتشف شيئا حينذاك أتراه رسم خططه للقبض على المغامر الجريء متلبساً في فرنسا ، وارساله الى المقصلة دون ندم او إبطاء؟ .

سحقها الخوف وراحت يدها تضغط على الخاتم بأصابع متشنجة قالت سوزان معاتبة وهي تتوقف عن ثرثرتها الطويلة :

ـ انت لاتصغين ياعزيزتي .

فقال مرغريت ، وهي تجبر نفسها على الابتسام :

ـ بلى ، بلى ياحبيبتي . . . انا مصغية حقاً . أحب ان اسمعك تتحدثين . . . وسعادتك تملأ نفسي فرحا . . . لالاتخافي . سنعمل على استرضاء والدتك . السير آندرو فوكس سيد انكليزي نبيل يملك المال والمركز . . . والكونتيسة لن ترفض . . . لكن . . . الان ياصغيرتي . . . اخبريني . . . ماهي اخر اخبار الوالد؟ .

قالت سوزان بفرح جنوني :

ـ آه! أحسن مايمكن ان نسمع ياسيدي اللورد جاء لرؤية ماما فجر اليوم . قال إن الامور تجري كما يرام بالنسبة لوالدي العزيز وأننا يمكن ان نتوقع وصوله الى انكلترا في أقل من اربعة ايام .

قالت مرغريت ، وعيناها الوهاجتان تتطلعان الى شفتي سوزان :

ـ نعم .

فيما مضت الصبية تتكلم بانطلاق :

ـ آه ، ليس مانخشاه الان! الا تدرين ياعزيزتي أن الزهرة القرمزية العظيم النبيل نفسه ذهب لانقاذ بابا؟ لقد ذهب ياعزيزتي . . . ذهب فعلا .

واضافت بفرح متأجج :

- كان في لنـدن هذا الصبـاح. . . وسيصـل كاليه غدا ربما. . . حيث سيقابل بابا. . . ومن ثم. . . ثم. . .

وقعت الضربة [او وقعت الفأس بالرأس] كانت تتوقع هذا رغم انها حاولت طوال نصف الساعة الاخير ان تخدع نفسها وتطرد مخاوفها لقد ذهب الى كاليـه كان في لنـدن صبـاح اليـوم. . . هو. . . الـزهـرة القـرمـزيـة. . . بيـري بلاكني. . . زوجهـا. . . الـذي وشت به الى شوقلان الليلة الماضية. . .

بيـري. . بيـري. . . زوجهـا. . . الـزهـرة القرمزية. . . آه! كيف عمـيـت عن هذا؟ الان فهـمـت. . . كل شيء. . . الـدور الـذي يمثله. . . القناع الذي يلبس. . . من أجل ذر الرماد في اعين الجميع.

وكـل هذا حبـاً بالمغـامـرة والمتعـة طبعـا - هوينقـذ الرجال والنساء والاطفـال انـه يتلذذ بهـذه المغـامـرة مثلمـا يتلذذ البعض بتعـذيب الحيـوانـات وقتلها. إن الرجل الثري الخامل أراد هدفاً في الحياة. . . وهـا هووحفنـة الشبـان الشجعـان الذين جندهم تحت رايته، يجدون متعة في المخاطرة بحياتهم لانقاذ بعض الابرياء.

ربما كان ينوي ان يخبرها حين تزوجا. ثم بلغته حكاية الماركيز دو سان سير فتخلى عن الفكرة فجأة معتقداً، بلا شك، بأنها قد تغدر، في يوم من الايـام، به وبـرفاقه الذين اقسموا ان يتبعوه. ولذا خدعها، كما خدع الجميـع، بينمـا يدين مئات الناس له بحياتهم وتدين له عائلات كثيرة بحياتها وسعادتها.

إن قنـاع البـلاهـة جيد والدور بارع حقاً. لاعجب ان تنطلي الحيلة

على جواسيس شوفلان. فلا يعرفون ان وراء هذا الغندور هذا الطاووس ذي الرأس الاجوف يكمن الرجل الذي حير بجرأته النادرة ودهائه أبرع الجواسيس الفرنسيين، في فرنسا وانكلترا معا. وحتى عندما ذهب شوفلان الى قاعة طعام اللورد غرينفيل، الليلة الماضية بحثا عن الزهرة القرمزية الجريء، لم ير سوى السيربيري بلاكني الابله غارقا في النوم على جانب من احدى الارائك.

هل حزر السر بذكائه الحاد ياترى؟ هنا يكمن اللغز المحير المخيف. هل أرسلت مرغريت بلاكني زوجها الى حتفه حين وشت برجل غريب مجهول الاسم لكي تنقذ أخاها؟

لا! لا! لا! وألف لا! لايمكن للقدر ان يوجه ضربة كهذه: الطبيعة نفسها ترفض هذا الحكم. ليت يدها التي امسكت قصاصة الورق، ليلة امس، شلت قبل ان تقدم على فعلة شنعاء فظيعة كهذه.

قالت سوزان الصغيرة مذعورة وهي ترى وجه مرغريت يغيم ولونها يصبح مثل لون الرماد:

ـ مابك عزيزتي؟ هل انت مريضة يامرغريت؟ مابك؟ فغمغمت، كمن يحلم:

ـ لاشيء ياطفلتي لاشيء. لحظة... دعيني افكر... افكر!... قلت... ان الزهرة القرمزية ذهب اليوم؟

ـ مرغريت، عزيزتي، ماالامر؟ لقد خوفتني...

ـ لاشيء ياطفلتي... اقول لك... [أو صدقيني] لاشيء... اريد ان اخلومع نفسي دقيقة و... ياعزيزتي... قد اضطر الى اختصار الوقت معك، اليوم... قد اضطر الى السفر... هل تفهمين؟

- افهم ان شيئاً ما حدث، ياعزيزتي، وأنك تريدين الانفراد.. لن اعيقك عن ذلك. لاتشغلي بالك من ناحيتي. خادمتي [لوسيل] لم ترجع بعد... سنعود معا... لاتفكري بي. واندفعت تعانق مرغريت بحماس. صحيح انها طفلة، لكنها احست بشدة حزن صديقتها ولم تحاول التطفل على هموم مرغريت بل تهيأت للانسحاب.

فقبلت مرغريت مرات ومرات وعادت تقطع المرج بحزن. لم تتحرك مرغريت من مكانها، بل لبثت هناك تفكر... تسائل نفسها: ما العمل؟

وبينما توشك سوزان ان تصعد الدرجات درجات السقيفة الامامية اذا بأحد الحجاب يأتي مسرعا الى سيدة القصر، حاملاً بيده رسالة مختومة فالتفتت بحركة غريزية وقلبها يقول لها ان مزيدا من الاخبار السيئة ينتظر صديقتها، وشعرت بأن مارغو المسكينة غير مستعدة لتحمل المزيد.

وقف الحاجب بجانب سيدته باحترام ثم سلمها الرسالة المختومة فسألته:

- ما هذا؟

- وصلت توا، سيدتي.

تناولت مرغريت الرسالة بحركة ميكانيكية وقلبتها بأصابع راعشة وسألت:

- من أرسلها؟

فأجاب الحاجب:

ـ سيـدتي ، عداء البـريـد قال إن أوامره ، تقضي بتسليم هذه الرسالة وأن سيادتك ستعرفين ممن جاءت .

فضت مرغـريت الغـلاف وسـرعـان ما أنبأتهـا غريـزتها بمحتويات الـرسـالـة ونظـرت اليهـا بصورة ميكانيكية كانت تلك هي الرسالة التي بعث بهـا آرمـان سان جيست الى السيـر آنـدرو فوكس ـ الـرسـالة التي سرقهـا جواسيس شوفـلان في نزل «استـراحـة الصيـاد» وجعـل منهـا شوفلان سلاحا لارغامها على الطاعة .

لقـد أوفى بوعـده ـ وأعاد اليها رسالة سان جيست المشبوهة لانه في طريقه الان للقبض على الزهرة القرمزية .

هاجت أحاسيس مرغريت وبدا كأن روحها تفارق جسدها فترنحت وأوشكت على السقـوط لولم تسنـدهـا سوزان بذراعهـا وبـذلت جهدا جبـارا لاستعـادة سيطـرتها على نفسها . . . إن امامها الكثير مما يجب عمله . قالت للخادم بهدوء :

ـ جئني بالعداء . هولم يذهب؟

ـ لا ، سيدتي .

مضى الخادم فالفتت مرغريت الى سوزان قائلة :

ـ وأنت ياطفلتي ، اسرعي الى الـداخـل . اطلبي من لوسيل ان تتهيأ اخشى ان اضطر الى اعادتك الى بيتك ياطفلتي . و . . . صبرا . . قولي لواحدة من الوصائف تحضر لي ثياب سفر.

لم تجب سوزان ، بل قبلت مرغريت بلطف، وأطاعت بلا كلام . فقد احزن الصبية مارأت من علائم البؤس الفظيع الذي لايوصف على وجه صديقتها .

عاد الخادم بعد دقيقة مستصحبا معه العداء الذي جاء بالرسالة سألته

مرغريت :

- من اعطاك المظروف؟

أجاب الرجل :

- احد السادة ياسيدتي في نزل «الوردة والشوكة» مقابل محطة «تشيرنغ كروس» قال انك ستفهمين .

- في «الوردة والشوكة»؟ ماذا كان يفعل؟

- كان في انتظار العربة التي استأجرها، ياسيدتي .

- العربة؟

- أجل، سيدتي . عربة خاصة طلبها . عرفت من تابعه أنه يعتزم الذهاب الى دوفر رأسا .

- هذا يكفي . يمكنك الانصراف .

ثم التفتت الى الخادم امرة :

- اريد عربتي واربعة من اسرع الجياد في الاصطبلات في الحال .

فغادر الخادم والعداء مسرعين لتنفيذ الاوامر ظلت مرغريت واقفة وحدها وسط المرج . كانت قامتها الممشوقة جامدة كالتمثال وعيناها شاخصتان وذراعاها مشبوكان بقوة على صدرها : تحركت شفتاها وراحت تغمغم بالحاح يفطر القلب حزنا :

- ما العمل؟ ما العمل؟ اين اجده؟ آه يالهي ! أرشدني . لكن هذا ليس وقت الندم واليأس .

لقد ارتكبت - بحماقة - عملا شريرا وفظيعا - أسوأ جريمة، في نظرها، يمكن أن ترتكبها إمراة - ورأت فيها الشناعة كلها . ان عماها عن الانتباه الى سر زوجها يبدو في نظرها الان خطيئة قاتلة اخرى . كان

عليها ان تعرف! كان عليها ان تعرف!

كيف لها ان تتصور رجلا يحب بهذه الدرجة من التفاني مثل بيري بلاكني قد أحبها منذ البداية؟ كيف يمكن لرجل كهذا ان يختار الظهور بمظهر الاحمق الابله؟ كان عليها، بالاقل، ان تعرف انه يلبس قناعا وان ترفع القناع عن وجهه كلما اصبحا بمفردهما.

كان حبها له عديم الجدوى ضعيفا، قابلا للانسحاق تحت ضغط كبريائها. وكانت هي الاخرى تلبس قناعا ظاهره الاحتقار له وباطنه سوء الفهم التام.

لكن لاوقت الان لاسترجاع الماضي. لقد ارتكبت خطيئة بقصر نظرها، بعماها. والان عليها ان تدفع الثمن. ان تكفر. . . لا بمجرد تأنيب الضمير، بل بفعل سريع ومفيد.

بيري مضى الى كاليه وهو غافل تماما عن حقيقة ان عدوه اللدود في أثره. لقد غادر على يخته من جسر لندن فجر اليوم. واذا خدمته الريح فانه يصل الى فرنسا في اربع وعشرين ساعة دون ريب. ولا شك انه اعتمد على الريح في اختيار خط سيره.

شوفلان، من ناحية اخرى، انطلق الى دوفر. هناك يستأجر سفينة ليصل بها الى كاليه في نفس الوقت تقريبا. وعندما يصل بيري الى كاليه سيلتقي بجميع اولئك الذين ينتظرون بلهفة مجيء «الزهرة القرمزية» النبيل الشجاع، الذي جاء ليخلصهم من ميتة ظالمة مخيفة ومع وجود عيون شوفلان وجواسيسه الذين يراقبون كل تحركاته فان بيري لايعرض حياته وحده للخطر، بل وحياة اولئك اللاجئين الذين وضعوا ثقتهم فيه وينتظرونه. هناك ايضا آرمان الذي ذهب لملاقاة دو توروناي وفي ذهنه ان «الزهرة القرمزية» يؤمن سلامته.

ان في يدي مرغريت الان حياة هؤلاء وحياة زوجها يجب ان تنقذهم اذا كانت عزيمة الانسان وبراعته بمستوى المهمة.

لكنها لاتستطيع القيام بهذا كله وحدها لسوء الخط. وحتى لو وصلت الى كاليه فانها لن تعرف اين تجد زوجها، بينما عرف شوفلان كل تحركات زوجها بعد سرقته الاوراق في دوفر. لكنها تريد ان تحذر بيري قبل كل شيء.

انها تعرف الان مايكفي لان تفهم بأنه لايتخلى ابدا عن الناس الذين وضعوا ثقتهم فيه ولن يهرب من الاخطار ولن يدع الكونت دو تورناي يقع بأيدي ناس متعطشين للدماء لايعرفون الرحمة. وقد يقع وهو غافل في فخ الشيطان ولكن اذا ما تلقى تحذيرا، فقد نجح.

واذا فشل - اذا اثبت «القدر» وشوفلان ومالديه من وسائل وجواسيس بأنهما اقوى من البطل الجريء حقا - فيجب على الاقل، ان تكون الى جانبه لتخفف عنه وتحبه وتدلله وتجعل الموت يبدو حلوا بأن تموت معه متعانقين تغمرهما سعادة غامرة اذ يدركان ان حبهما متبادل وان كل سوء الفهم السابق قد مضى وانتهى.

تصلب عودها عزيمة وارادة هذا ماتنوي ان تفعله اذا منحها الله الذكاء والقوة. لم تعد تنظر بشرود، بل توهجت عيناها لفكرة ملاقاته ثانية عاجلا، وسط الاخطار المهلكة. وشاع فيهما فرح عظيم لكونها ستشاركه تلك الاخطار، لمساعدته - بأن تكون معه على الاقل - اذا اخفقت في مسعاها.

تحول الوجه الطفولي الحلو الى تعبير عن القوة والارادة فانطبق الفم الجميل بقوة على الاسنان المصكوكة. لقد عقدت العزم على أن

تفعل شيئاً او تموت معه وفي سبيله . وانعقد الحاجبان المستقيمان في تقطيبة تدل على عزيمة لاتلين .

لقد رسمت خطتها . ستذهب للبحث عن السير آندرو فوكس اولا . انه افضل اصدقاء بيري وتذكرت مرغريت كيف كان الشاب يتحدث دائما عن زعيمه الغامض بولاء اعمى .

سيساعدها حيث تحتاج المساعدة ان العربة جاهزة فما عليها الا ان تغير ملابسها وتودع الصغيرة سوزان ويمكنها عندئذ ان تمضي في طريقها . فمضت الى البيت بهدوء من غير عجلة ولا إبطاء .





الفصل العشرون

(الصديق)

بعد اقل من نصف ساعة كانت مرغريت، غارقة في الافكار، داخل مركبتها المنطلقة بها. الى لندن.

كانت قد ودعت الصغيرة سوزان وداعا حارا واطمأنت على عودتها مع وصيفتها بعربتها الخاصة الى المدينة. وبعثت برسول يحمل رسالة اعتذار الى صاحب السمو الملكي، راجية تأجيل زيارته لشهر اب بسبب ظروف طارئة ملحة اخرى تسبق وصولها الى [فقر شام] للاعداد لتبديل الجياد هناك.

ثم ابدلت ثوب الموسلين بثياب سفر داكنة وعباءة وحملت مبلغا من المال ـ وكان زوجها يضع تحت تصرفها مبالغ طائلة دائما ـ وانطلقت.

لم تحاول ان تخدع نفسها باية امال كاذبة لاجدوى منها. فسلامة

اخيها ارمان مشروط باعتقال الزهرة القرمزية. وبما ان شوڤان قد اعاد اليهـا رسـالة التواطؤ فليس من شك بانه مقتنع بان بيري بلاكني هو الرجل الذي يبحث عنه ليقضي عليه.

لا! مجال ابدا لاية اوهام! ان بيري، الزوج الذي احبته بكل ما في اعجابها بشجاعته من حماس، بات يواجه خطرا مميتا وشيكا بسببها. لقد وشت به لعدوه ـ صحيح انها فعلت هذا بقصر نظر ـ لكنها غدرت به. واذا نجح شوڤلان في الايقاع به وهو غافل عما يحيق به من اخطار حتى الان، فسيكون دمه في رقبتها. دمه... موته! وهي المستعدة لان تدافع عنه بدمها وتفديه بحياتها.

طلبت من الحوذي ام يمضي بها الى «نزل التاج». وما ان وصلت حتى امـرت الحـوذي باطعـام الجياد وجعلها ترتاح. ثم طلبت محفة وامرت بحملها الى بيت في حي [پال ـ مال] حيث يسكن السير آندرو فوكس.

شعرت بانها تفضل ان تولي ثقتها الى السير اندرو فوكس من بين جميع اصدقاء بيري الذين انضموا [انضوو] تحت رايته الباسلة. فقد كان صديقا لها دائما وجاء الان حبه للصغيرة سوزان ليقربه منها اشد من ذي قبل. اذا لم يكن في البيت، بل ماض مع بيري في مهمة مجنونة فستقصد اللورد هاستغنز او اللورد توني عندئذ ـ انها تريد العون من احد هؤلاء الشبان والا عجزت عن انقاذ زوجها.

لكنها وجدت السير اندرو فوكس في البيت وسرعان ما اعلن الحاجب عن قدوم سيادتهـا. صعـدت الى الـطابق الثاني حيث جناح العازب الشاب فقادخلها الحاجب الى غرفة طعام صغيرة، لكنها فخمة الاثاث.

وبعد دقيقة او دقيقتين ظهر السير آندرو نفسه. واضح انه اندهش بشدة حين عرف من هي السيدة الزائرة، لانه نظر الى مرغريت بقلق - وحتى بارتياب - وهو ينحني امامها باحترام كما كانت الاصول تقضي حينذاك.

طرحت مرغريت جانبا كل اثر للقلق والتوتر. كانت في غاية الهدوء. وبعدما ردت على تحية الشاب قالت بهدوء:

- سير آندرو، لااريد اضاعة الوقت الثمين في اطالة الحديث يجب ان تقتنع بصدق ماسأقوله لك. ان زعيمك ورفيقك، «الزهرة القرمزية»... زوجي... پيري بلاكني.. في خطر مهلك. لوكان لديها اي شك من قبل بصحة استنتاجاتها فقد زال الشك الان، لان السير آندرو، الذي فوجيء تماما، شحب لونه ولم يعد قادرا ابدا على التمويه.

تابعت كلامها بهدوء:

- لايهم كيف عرفت ياسير آندرو. حمدا لله لان عرفت ولان الاوان لانقاذه لم يفت بعد. لسوء الحظ لااقدر على القيام بالعمل وحدي ولذا جئتك طالبة العون. قال الشاب محاولا ان يتمالك نفسه:

- ليدي بلاكني... انا

فقاطعته قائلة:

- هلا استمعت الي اولا المسألة كالاتي. حيمن سرق مندوب الحكومة الفرنسية اوراقكم في دوڤر في تلك الليلة وجد فيها بعض الخطط فهم منها انك انت او زعيمك بصدد أنقاذ الكونت تورناي واخرين. الزهرة القرمزية - بيري... زوجي - رحل لهذه المهمة صباح اليوم. شوڤلان يعرف ان الزهرة القرمزية وبيري بلاكني وجهان لشخص واحد. سيتبعه الى كاليه، وهناك يلقي القبض عليه. تدري مثلما ادري ماالمصير الذي

ينتظره على يد الحكومة الثورية في فرنسا. لن ينقذه تدخل من انكلترا - حتى من الملك جورج نفسه. سيزعم روبسبير وعصابته ان التدخل جاء متأخرا. ولكن ليس هذا فحسب. فالزعيم الامين سيدلهم، من دون ان يدري، على مخبأ الكونت دو تورناي وكل الاخرين الذين مازالوا يعلقون اماهم عليه.

كانت تتكلم بهدوء وصدق وبعزيمة راسخة لاتلين. وكان غرضها ان تجعل ذلك الشاب يثق بها ويساعدها لانها لاتستطيع عمل شيء بدونه.

كرر يقول في محاولة لكسب الوقت ليفكر في مايجب عمله:

- انا لاافهم.

- آها! لكني اعتقد بانك تفهم ياسير اندرو. يجب أن تفهم اني اقول الصدق. تأمل هذه الحقائق عن كثب: بيري ابحر الى كاليه، قاصدا في تقديري، مكانا منعزلا من الساحل. . وشوفلان في اعقابه. لقد استأجر عربة الى دوفر ويحتمل ان يعبر القنال هذه الليلة. ماذا تعتقد سيحدث؟

- سيصل بيري الى المكان المقصود: غير منتبه الى انه مراقب. ويمضي الى حيث الكونت دو تورناي والاخرون - بينهم آرمان سان جيست، اخي - سيخرجهم واحدا واحد واحد غير عالم بأن اقوى عين ثاقبة في العالم تراقب كل حركاته وعندما يفضح دون انتباه، كل الذين وضعوا ثقتهم العمياء فيه، عندما يتهيأ لنقل، اولئك الذين ذهب بكل شجاعة لانقاذهم، الى السفينة ثم الى انكلترا، تنطبق ابواب الفخ عليه او من ثم يبعثون به الى حيث تنتهي حياته النبيلة تحت سكين المقصلة.

ظل السير اندرو معتصما بالصمت. فقالت بحرارة:

- انت لاتثق بي. اه، ياالهي! الا تستطيع ان ترى اني في محنة قاتلة

يارجل، يارجل!

ثم اضافت وهي تمسك بيديها الصغيرتين بالرجل من كتفيه فجأة وتجبره على النظر اليها مباشرة:

ـ قل لي، هل ابدو مثل أسوإ المخلوقات ـ امرأة يمكن أن تخون زوجها؟

قال الشاب اخيرا:

ـ معاذ الله، ياليدي بلاكني، أن أنسب اليك مثل هذه الدوافع الشريرة، انما...

ـ انما ماذا؟... قل... أسرع يارجل... حتى الثواني ثمينة! سألها باصرار، وهو ينتظر في عينيها الزرقاوين مستفسرا:

ـ اخبريني.. يد من ساعدت المسيو شوفلان على الوصول الى المعلومات التي تقولين انه يعرفها؟

فأجابت بهدوء:

ـ يدي. اعترف بهذا ـ لن اكذب عليك، لاني اريدك ان تثق بي ثقة مطلقة. لكني ماكنت اعرف ـ انى لي ان اعرف ـ من هو الزهرة القرمزية... وسلامة اخي هي اثمن نجاحي!

ـ بمساعدة شوفلان على اقتفاء اثر الزهرة القرمزية؟ فأومأت برأسها بالايجاب وقالت:

ـ لافائدة من اخبارك على اقتفاء اثر الزهرة القرمزية؟ فأومأت برأسها بالايجاب وقالت:

ـ لافائدة من اخبارك كيف اجبرني، ارمان اكثر من اخ بالنسبة لي... و... و... كيف لي ان احزر؟.. لكن هذه اضاعة للوقت ياسر اندرو... كل ثانية لاتقدر بثمن... بالله عليك!... زوجي في خطر.. صديقك!... رفيقك!... ساعدني على انقاذه.

شعر السير اندرو بأن موقفه صار حرجا فاليمين الذي اقسمه امام زعيمه ورفيقه يوجب عليه الطاعة والكتمان. ومع ذلك فالمرأة الجميلة التي تسأله الوثوق بها صادقة بلا شك مثلما ان صديقه وزعيمه في خطر داهم دون شك، و. . . . قال اخيراً:

- ليدي بلاكني. يعلم الله انك جعلتني في حيرة امري فما عدت اعرف ماهو واجبي. اخبريني: ماذا تريدين ان افعل؟ ان هناك تسعة عشر رجلا، بضمنهم انا، مستعدين للتضحية بحياتهم اذا تعرض الزهرة القرمزية للخطر. فقالت بلهجة جافة:

- لاحاجة للتضحية بالارواح الان ياصديقي. ذكائي واربعة جيساد سريعة تفي بالغرض. انما يجب ان اعرف اين اجده. لاحظ هذا.

ثم اضافت وعيناها مغروقتان بالدموع:

- لقد اذللت نفسي امامك، اعترفت لك بخطأي. فهل تريد ان اعترف لك بضعفي؟ كنا، انا وزوجي، متجافيين لانه لم يثق بي، ولاني كنت عمياء فلم افهم

لابد ان تعترف بان العصابة التي وضعها على عيني كانت سميكة للغاية، فهل من الغرابة ان لاارى من ورائها؟ لكن، ليلة امس، بعدما اوصلته بحماقتي الى مثل هذا الخطر المهلك، ادركت فداحة الخطأ الذي ارتكبت. اذا لم تساعدني ياسير اندرو فسأظل أكافح من أجل انقاذ زوجي. سأبذل كل مافي من طاقة في سبيله. لكني قد اعجز لاني قد اصل بعد فوات الاوان وعندئذ لن تجد انت سوى ندم العمر كله ولن يبقى لي سوى قلب محطم.

تأثر الشاب بحرارة كلمات هذه المرأة البارعة الجمال فقال:

- لكن، اتدرين، ياليدي بلاةكني، ان ماتنوين القيام به هو من مهام

الرجال؟ لايمكنك السفر الى كاليه بمفردك، فقد تعرضين نفسك شخصيا لأشد المخاطر وفرصتك في العثور على زوجك الان ـ لو اردت نصيحتي ـ ضعيفة. فغمغمت بنعومة:
ـ آه، آمل ان تكون هناك مخاطر! امل ان تكون هناك اخطار ايضا! عندي الكثير مما اكفر عنه. ثم اظنك غلطانا [مخطئا]. فجواسيس شوفلان يراقبونكم انتم كلكم ولن ينتبهوا الي. اسرع ياسير اندرو. المركبة حاضرة، وما عندنا وقت نضيعه... يجب ان اصل اليه!
واضافت بحيوية وحشية:
ـ يجب ان احذره بأن الرجل في اعقابه... الايمكنك ان تلاحظ... الا يمكنك ان تلاحظ اني يجب ان اصل اليه... حتى... حتى لو تأخرت عن انقاذه... على الاقل... اكون الى جانبه... في النهاية.
ـ سيدتي، ماعليك الا ان تأمريني. يسعدني انا وأيا من رفاقي ان نضحي بحياتنا من اجل زوجك. حبذا لو انك عدت...
فمدت اليه يدها قائلة:
ـ لا، ياصديقي... الا ترى اني سأجن لو تركتك تذهب بدوني؟ هل ستثق بي؟
فقال ببساطة:
ـ أنا انتظر اوامرك.
ـ اصغ اذن. عربتي جاهزة لتحملني الى دوفر. هل ستتبعني بأسرع ما تعدو به الخيل. نلتقي في «استراحة الصياد» مساءاً. شوفلان سيتجنب المجيء الى النزل لانه معروف هناك. واعتقد ان هذا أأمن لنا. سأكون مسرورة لان ترافقني الى كاليه... كما تقول.. قد لااهتدي الى سير بيري وانت افضل من يرشدني. سنستأجر سفينة من دوفر ونعبر القنال

ليلا. وتتنكر، اذا وافقت، بزي خادم حتى لاتبفت اليك الانظار.
فرد عليها الشاب باخلاص:

- أنا في خدمتك كليا ياسيدتي. وان شاء الله سوف ترين «حلم اليقظة» قبل وصولنا الى كاليه. ان كل خطوة يخطوها الزهرة القرمزية على ارض فرنسا محفوفة بالخطر مادام شوفلان في اعقابه.

- اسأل الله العون ياسير اندرو. والان وداعا. لقاؤنا الليلة في دوفر! سيكون سباقا بيني وبين شوفلان لعبور القنال، الليلة - والجائزة: حياة «الزهرة القرمزية». قبل يدها ثم رافقها الى المحطة. وبعد ربع ساعة عادت الى نزل التاج، حيث كانت عربتها وجيادها في انتظارها. وسرعان ماانطلقت الجياد تقطع شوارع لندن ومنها الى طريق دوفر بسرعة جنونية.

لاوقت لليأس الان. انها ماضية للعمل ولاوقت تضيعه في التفكير. لقد عاد الامل يغمر قلبها ثانية بوجود سير اندرو فوكس الى جانبها كرفيق طريق ونصير.

الله رحيم. انه لايسمح بجريمة فظيعة بالوقوع، كموت رجل شجاع على يد المرأة التي تحبه وتعبده وتضحي بحياتها من اجله بسرور.

عادت مرغريت بافكارها اليه.. الى البطل الغامض الذي احبته دائما من غير وعي حين لم تكن تعرف من هو. كانت في ماضي الايام تطلق عليه اسم «ملك القلب المجهول» وهي تضحك. وهاهي تكتشف ان هذا الشخص الغامض الذي كانت تعبده والرجل الذي احبها حبا عنيفا هما واحد. فلا عجب ان تخطر في بالها صورتان حبيبتان. وراحت تسائل نفسها: ترى ماذا ستقول حين يلتقيان؟

كانت نفسها زاخرة باسباب القلق والخوف. وكانت الساعات القليلة الماضية حافلة بالتوتر بما جعلها تهرب الان منها الى هذه الافكار القليلة المتفائلة.

ولعب اهتزاز العربة ودوران العجلات بايقاعه الرتيب على تهدئة اعصابها الثائرة: واذا بعينيها، اللتين ارهقهما السهر والدموع الغزيرة، تغمضان بصورة لاارادية [رغما عنها] وتغرق في نوم مضطرب.





الفصل الحادي والعشرون
(خوف وترقب)

وصلت اخيرا الى «استراحة الصياد» في ساعة متأخرة من الليلة . لقد اتمت الرحلة كلها في اقل من ثماني ساعات ، بفضل التبديل المستمر للجياد في محطات الطريق . فكانت تعطي المال بسخاء لتحصل على افضل الخيول واسرعها .

الحوذي هو الاخر لم يعرف الكلل . وكان الوعد بمنحه مكافأة سخية خاصة قد طرد النعاس من عينيه وابقاه يقظا فراح ينهب بالمركبة الارض نهبا .

احدث وصول الليدي بلاكني الى استراحة الصياد في منتصف الليل قلقا وهرجا شديدا . فهبت سالي من فراشها بعجلة واندفع المستر بليباند يسعى بكل مالديه من جهد لتوفير الراحة لضيفته المهمة .

والحق ان صاحب النزل وابنته كانا يعرفان جيدا مايحب ان يتمتع به صاحب النزل من ادب فلم يظهرا اي استغراب لمجيء الليدي بلاكني وحدها في ذلك الوقت غير المألوف. لاريب انهما كانا يفكران ويقلبان الامر من مختلف الوجوه، لكن مرغريت كانت مشغولة البال بخطورة مشكلتها بما جعلها لا تفكر بمثل هذه الصغائر.

كانت قاعة المقهى - التي شهدت الاونة الاخيرة اعتداء وقحا على سيدين انكليزين - خالية من الناس تماما. اوقد المستر جيليباند النور مجددا واشعل نارا في الوجاق الكبير وجلب كرسيا مريحا الى جانب الوجاق فجلست مرغريت شاكرة.

سألت الانسة سالي الحسناء، وهي مشغولة بنشر غطاء نظيف على المائدة تمهيدا لتقديم عشاء بسيط للسيدة:

- هل ستبتين الليلة يا سيدتي؟

فأجاب مرغريت:

- لا! لا الليلة كلها. على اية حال، لن احتاج الى غرفة، بل هذه القاعة اذا امكن ان امكث فيها وحدي ساعة او ساعتين.

فقال المستر جيليباند الطيب، محاولا ان يزيل عن وجهه المتورد اي اثر للاستغراب الذي بدأ يستولي عليه، مخافة ان تلاحظ سيادتها ذلك:

- انها في خدمة سيدتي.

قالت مرغريت:

- سأعبر القنال اول ارتفاع للمد، وفي اول سفينة احصل علها، لكن سائق عربتي وخدمي سيبيتون الليلة هنا، وربما يمكثون عدة ايام. فأرجو ان توفر لهم الراحة.

ـ اجل ياسيدتي، سأهتم براحتهم. هل تجلب سالي بعض العشاء؟
ـ نعم، من فضلك. ضع بعض الاطعمة الباردة على المائدة وحاول ما يصل السير اندرو فوكس. ليتفضل بالمجيء الى هنا.
ـ نعم، سيدتي.

اكتسى وجه جيليباند الطيب بعلائم الضيق رغما عنه. كان الرجل يكن احتراما عظيما للسير بيري بلاكني، فلم يطق ان يرى زوجته تهرب مع السير آندرو الشاب. لكن الامر لا يخصه بالطبع ولم يكن جيليباند من مروجي الشائعات. ومع ذلك، راح في سره يقول ان سيادتها ليست سوى واحدة من اولئك «الاجانب». فما الغريب بان تكون فاسدة مثل الباقين؟ قالت مرغريت بلطف:
ـ لا تسهر معي يا جيليباند الطيب، ولا انت ياسيدة سالي. قد يتأخر السير اندرو.

كان جيليباند يتمنى ان تعود سالي الى فراشها فقد بدأ ينفر من هذه التصرفات تماما. لكن الليدي بلاكني تدفع بسخاء لقاء اقامتها كما ان شؤونها لا تعينه اطلاقا.

وضعت سالي عشاء بسيطا من اللحوم الباردة والنبيذ والفاكهة على المائدة ثم استأذنت بأدب وانصرفت، مستغربة مما يبدو على وجه ليدي بلاكني من علائم الجدية والاهتمام وهي توشك على الفرار مع حبيبها.

مرت على مرغريت فترة انتظار متعب. كانت تعرف ان سيراندرو لا يمكن ان يصل الى دوفر قبل ساعتين ـ ولا سيما انه سيحتاج الى وقت للحصول على ثياب خادم مناسبة. انه فارس رائع بالطبع ولن يجد مشقة في قطع مسافة السبعين ميلا هذه بين لندن ودفر، كما انه سنطلق

كالسهم ينهب الارض نهبا. لمنه قد لايجد في طريقه جيادا نشيطة باستمرار. على اية حال لايمكن ان يكون قد غادر لندن الا بعد ساعة من مغادرتها هي على الاقل.

لم تر اثرا لشوفلان اثناء الرحلة. ولم يسمع سائق عربتها ان احدا راى واحدا باوصاف الرجل الفرنسي الضئيل الداهية التي ذكرتها له سيدته.

اذن فلا شك انه سبقها طول الوقت. ولم تجرؤ على الاستفسار في المحطات والخانات التي توقفت عندها لتبديل الجياد، مخافة ان ينتبه ايها جواسيس شوفلان المبثوثين على طول الطريق فيسرعون لتحذير عدوها قبل وصولها.

راحت تسائل نفسها: اين تراه يبيت الان؟ هل حالفه حسن الحظ فأستأجر سفينة وهو الان في طريقه الى فرنسا؟ هذه الفكرة اعتصرت قلبها مثل قبضة حديدية. آه، لو انها وصلت متأخرة فعلا!

آلمتها وحشة القاعة الخالية: كل سيء ساكن بشكل مخيف.. وكانت دقات الساعة الجدارية العتيقة - البطيئة الرتيبة بصورة مرعبة الصوت الوحيد الذي يكسر شعورها الخانق بالوحدة.

كانت مرغريت بحاجة الى كل طاقتها، الى كل عزيمتها، لتبقر محتفظة بشجاعتها في ساعات الانتظار الليلية الثقيلة هذه.

لابد ان كل مافي النزل نائم عداها. فقد سمعت سالي تصعد الى غرفتها في الطابق العلوي. المستر جيليباند ذهب ليرتب مكانا لمبيت الحوذي والمرافقين وعاد ليجلس تحت السقيفة الخارجية، حيث ألتقت مرغريت بشوفلان قبل اسبوع تقريباً. كان ينوبي انتظار السير اندرو فوكس، لكن سرعان ماغلبه النعاس، حتى ان مرغريت صارت تسمع

صوت شخيره الرتيب اللطيف الى جانب دقات الساعة البطيئة.

ولم يمض وقت طويل حتى انتبهت الى ان نهـار تشرين الـدافيء الجميل، الذي بدأ بداية سعيدة انقلب الى ليلة باردة قاسية. ولكن مع تقدم الوقت صار الجو اشد قسوة وتناهى الى اذنيها امواج عالية تضرب رصيف الاميرالية، على بعد المسافة بينه وبين النزل.

واشتد عصف الريح وصارت تصفر عاليا وهي تضرب نوافذ النزل العتيق وابوابه الضخمة المغلقة، وتهز جذوع الاشجار وتندفع الى القاعة عبر مدخنة الوجاق، فساءلت مرغريت نفسها ان كانت الريح ملائمة لرحلتها. لم تكن تخشى العاصفة وكانت تفضل التعرض لاخطار اشد على التأخر في عبور القنال.

اخرجتها من تأملاتها ضجة في الخارج. واضح انه سير اندرو فوكس وصل توا على جناح السرعة، لانهات سمعت وقع حوافر الجواد في فناء النزل الخارجي، ثم لم تلبث ان سمعت صوت المستر جيليباند يحيي القادم وهو بين النعاس والفرح.

وفجأة تنبهت مرغريت الى حراجة موقفها. فها هي وحدها في هذه الساعة المتأخرة من الليل، في مكان يعرفها كل من به. وهي على موعد مع فارس شاب لايقـل شهرة عنها، يأتي أليها متنكراً! فهل من مادة افضل من هذه للاقاويل!

على ان الذي جذب انتباه مرغريت هو الجانب المضحك من الامر: فيالها من مفارقة بين جدية مسعاها وما يمكن ان يتصوره المستر جيليباند الطيب عنها، فاذا بها تبتسم للمرة الاولى منذ ساعات طويلة وعندما

ظهـر السير اندرو امامها فجأة متنكرا بصورة بارعة في ثياب الخدم او الاتباع، استطاعت ان ترحب به بضحكة مرحة قائلة:
- قسما! ياسيدي الخادم، انا راضية بمظهرك هذا! كان المستر جيليباند قد تبع السير آندرو بادي الحيرة. وجاء تنكر «العاشق الشاب» مصداقا لشكوكه. فعبس وجهه وهو يفتح زجاجة النبيذ ويأتي بالمقاعد اللازمة وينسحب الى حيث ينتظر.

قالت مرغريت، وهي ماتزال تبتسم متخيلة مايمكن ان يدور في رأس الرجل الطيب من افكار في تلك اللحظة:
- شكراً ياصديقي الامين. لن نحتاج شيئا اخر. خذ هذه لقاء ما تحملته من تعب في سبيلنا.

ونـاولت الرجل، قطعتين ذهبيتين او ثلاثة فاخذها باحترام وامتنان شديدين. تدخل السير اندرو. بينما كان جيليباند يهم بالانصراف:
- صبرا ياليدي بلاكني. اظننـا سنحتـاج الى المـزيد من كرم صديقي جيليباند. يؤسفني القول اننا لن نقدر على العبور الليلة. فأعادت كلامه باستغراب:
- لن نعبر الليلة؟ لكن يجب ان نعبر ياسير اندرو، يجب! لاتوجد عبارة «لانقدر». . ويجب الحصول على سفينة الليلة مهما يكن الثمن.
لكن الشاب هز رأسه بأسى وقال:
- أخشى ان لاتكـون مسـألة تكاليف ياليدي بلاكني. هناك عاصفة والريح بعكس اتجاهنا تماما. ولن نستطيع الابحار حتى يتغير اتجاه الريح.

شحب وجـه مرغـريت شحوب الموتى. لم تتوقع امرا كهذا. حتى الطبيعة تآمرت عليها. بيري في خطر وهي لاتستطيع الذهاب اليه لان

الريح تهب من الساحل الفرنسي.
قالت باصرار شديد غريب:
ـ لكن يجب ان نذهب! تعرف اننا يجب ان نذهب! الا يمكنك ايجاد طريقة؟
أجاب:
ـ ذهب الى الشاطيء قبل مجيئي وتحدثت مع قائد سفينة أو أثنين. يستحيل الاقلاع هذه الليلة. هذا ماأكده لي كل البحارة. وأضاف، وهو ينظر الى مرغريت نظرة ذات مغزى:
ـ لااحد. لااحد يقدر على مغادرة دوفر الليلة. فهمت مرغريت في الحال مايقصد. فعبارة «لااحد» تشمل شوفلان ايضا. فأومأت للمستر جيليباند بانشراح وقالت:
ـ حسناً اذن يجب ان استسلم للامر الواقع. عندك غرفة لي؟
ـ آه، أجل ياسيدتي. غرفة حلوة يدخلها النور والهواء. سأعدها حالا. وهناك غرفة اخرى للسير اندرو. كلتاهما جاهزتان. فقال السير اندرو بمرح وهو يربت على ظهر الرجل بقوة:
ـ رائع، ياصديقي جيلي الامين، افتح الغرفتين واترك شموعنا هنا على الطاولة. اقسم انك الان في غاية النعاس وسيادتها لابد ان تتناول بعض العشاء قبل ذهابها الى النوم. ثم لاتخف ولاتحزن ياصديقي. ان زيارة سيادتها، حتى في هذه الساعة المتأخرة غير المألوفة، هي شرف كبير لبيتك وسوف يجزل لك السير بيري العطاء اذا اهتممت جيدا براحتها وخصوصية زيارتها.

لاشك ان السير اندرو حدس مايدور في رأس جيليباند الامين من افكار متضاربة ومخاوف. ولما كان السير اندرو سيدا شهما فقد حاول

بكلماته هذه ان يزيل بعض شكوك صاحب النزل الطيب. وقد اشرق وجه الرجل بعض الشيء لدى سماعه اسم السير بيري، وقتال بابتهاج وقد زال عنه بروده:

- سأرتب كل شيء في الحال ياسيدي. هل سيدتي راضية عن العشاء؟

- نعم، اشكرك ياصديقي الامين. وبما اني هلكانه من الجوع والتعب فاني اتوسل اليك ان تهيء الغرفة ثم التفت الى السير اندرو قائلة حال ماغادر جيليباند الغرفة:

- والان قل لي... قل لي ماعندك من اخبار.

فأجاب الشاب:

- ماعندي اخبار اخرى، ياليدي بلاكنيب. العاصفة لاتسمح لاية سفينة بمغادرة دوفر. ولكن ماتعتبرينه كارثة رهيبة هو في الواقع رحمة ربانية. اذا كنا عاجزين الان عن العبور الى فرنسا فان شوفلان يواجه نفس المشكلة.

- ربما رحل قبل هبوب العاصفة.

فقال السير آندرو بمرح:

- عساه يفعل، حتى تبعده الرياح عن خط سيره! من يدري؟ ربما هو الان غارق في قعر البحر. فالعاصفة عاتية لاتصمد امامها سفينة صغيرة. لكننا لايمكن؟ ان نبني آمالنا على غرق ذلك الشيطان الماكر وتحطم خططه الاجرامية. البحارة الذين تحدثت معهم اكدو لي المهم ان اية سفينة لم تغادر دوفر منذ ساعات. من ناحية اخرى تأكد لي ان شخصا غريبا وصل بالعربة عصر اليوم وقام، مثليي، بالاستفسار عن كيفية عبور القنال.

- اذن شوفلان لايزال في دوفر؟

ـ من غير شك. أأذهب وأطرحه ارضا واغرس سيفي في حشائه. هذه اسرع طريقة للتخلص من متاعبه.

ـ لا! لاتمزح ياسير آندرو! واأسفاه! منذ ليلة أمس وأنا اتمنى ان يموت هذا الشيطان. لكن ماتقترحه أمر مستحيل! قوانين هذا البلد لاتسمح بجريمة القتل! فقط في بلادي فرنسا الجميلة يقتل الناس بالجملة بموافقة القانون، باسم الحرية والحب الاخوي.

دعاها السير آندرو للجلوس الى المائدة لتناول بعض الطعام وتشرب قليلاً من النبيذ. فوجدت صعوبة بالغة، وهي في حالة يرى لها من التوتر والقلق، ان تتقبل فكرة الراحة الاجبارية هذه، في انتظار المد القادم بعد اثنتي عشرة ساعة. غير انها اطاعت مثل طفل وحاولت ان تأكل وتشرب.

وارح السير اندرو، بما هو عليه من صدق عواطف العاشق، يدخل السرور الى قلبها بالحديث عن زوجها. فروى لها بعض مغامرات الزهرة القرمزية الشجاع وخططه الجريئة التي رسمها لانقاذ اللاجئين الفرنسيين المساكين الذين دفعتهم الثورة الدموية العنيدة الى الفرار من بلدهم. واغرورقت عيناها بدموع الفرح والفخر وهي تستمع لقصص شجاعته وسعة خياله وحسن تدبيره وهو يخطط لانتشال رقاب رجال ونساء واطفال من تحت سكين المقصلة الذهبية المستعدة دائما لازهاق ارواح الناس بل ان الشاب جعلها تبتسم فعلا وهو يحدثها عن تنكرات الزهرة القرمزية الكثيرة الغريبة، التي استطاع بها الافلات من اشد رقابة وتدقيق في بوابات باريس. وكانت عملية التنكر التي هرب بها الكونتيسة دو تورناي وطفليها، عملية رائعة فريدة ـ فقد كان بلاكني من براعة التنكر، بهيئة عجوز مخيفة تقود عربة حمل، تلبس ثيابا قذرة

وتجمل سوطا شدت فيه خصلات من شعر ضحايا المقصلة، مايجعل حتى الالهة تضحك.

ضحكت مرغريت من كل قلبها حين راح السير اندرو يصف لها صورة بلاكني، الذي كان طول قامته مشكلة كبيرة تعاني منها كثيرا وتجعل مسألة التنكر في فرنسا صعبة بصورة مضاعفة.

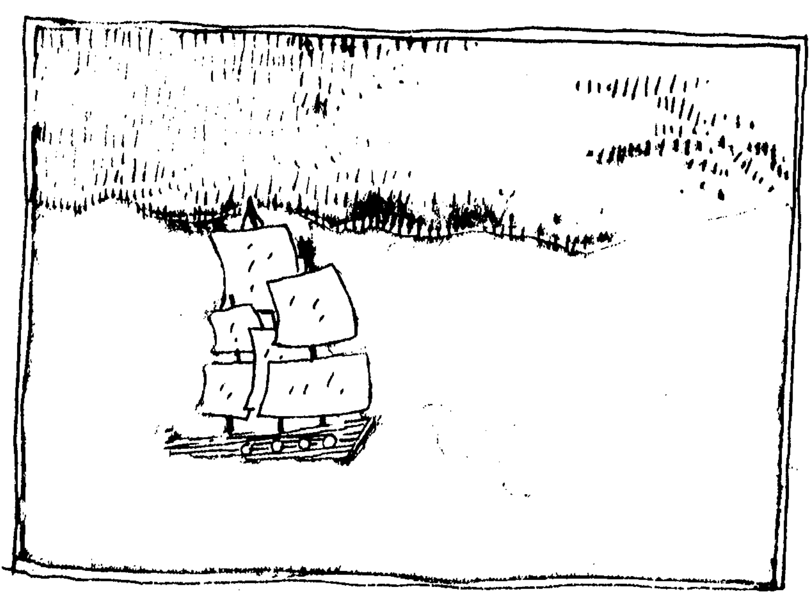
وهكذا مضت ساعة. وكانت هناك ساعات يجب قضاؤها بخمول في دوڤر. غادرت مرغريت المائدة وهي تزفر بنفاذ صبر ونظرت بخوف الى ظلمة الليل في غرف النوم بالطابق العلوي، حيث لايرافقها سوى القلق والارق، وزاد عويل الريح في الخارج في طرد النعاس من عينيها. ترى اين بيري الان؟ أن «حلم اليقظة» يخت قوي متين يصلح للملاحة حتى في اعالي البحار. ويرى السير اندرو ان اليخت قد غادر قبل هبوب العاصفة او انه لم يغامر بالأبحار في مثل هذا الجو، بل فضل البقاء هادئا في «غريڤسند».

ان «بريغز» ملاح خبير كما ان السير بيري لايقل براعة في قيادة السفينة عن اي ملاح متمرس. فلاحظ عليهما من العاصفة.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل بكثير حين مضت مرغريت الى غرفتها. وهرب النعاس من عينيها كما كانت تتوقع. وازدحم رأسها بالافكار السوداء خلال هذه الساعات الطويلة المملة، بينما ظلت العاصفة على هيجانها قاطعة عليها طريق الوصول الى بيري. وكان هدير الامواج العاتية الاتي من بعيد يملأ قلبها بالقنوط، فكأن هدير البحر هذا وجد صدى في قلبها الحزين وراح يلعب بأعصابها. ذلك اننا حين نكون في منتهى السعادة فقط نستطيع ان نتحمل فكرة النظر بمرح الى البحر الممتد الذي لانهاية له وهو يموج بايقاع مستمر مثير

للاعصاب يتماشى مع افكارنا: فحين تكون افكارنا بهيجة يأتي هدير الامواج حلوا بهيجا. وعندما تكون حزينة فأن كل موجة تحمل مزيدا من الحـزن الى قلوبنـا وكـأنها تقول لنا اننا ناس بلا حول او قوة وان مباهجنا كلها ضئيلة.





الفصل الثاني والعشرون
(كالية)

مهما ثقلت وطأة الليل وطال النهار فانهما صائران الى الانقضاض لامحالة.

قضت مرغريت اكثر من خمس عشرة ساعة في عذاب عقلي كاد ان يؤدي بها الى الجنون. فبعد ليلة لم تذق فيها طعم النوم نهضت مبكرة، هائجة النفس متلهفة اشد التلهف للسفر، مخافة ان يبرز المزيد من العقبات في طريقها. نهضت قبل اي واحد في النزل، يملأ قلبها الخوف، خشية ان تفوتها فرصة السبق الى السفر.

حين نزلت الى الطابق الارضي وجدت السير آندرو فوكس جالسا في قاعة المقهى. لقد سبقها اى النهوض بنصف ساعة على الاقل فذهب الى رصيف الاميرالية ليجد ان اي شخص لم يغادر دوڤر بعد، حتى

الثعلب الفرنسي. كانت العاصفة على اشدها والمد في اتجاه معاكس. فاذا لم تهدأ الريح او تغير اتجاهها فانهما سيضطران الى الانتظار اثنتي عشرة ساعة اخرى حتى موعد المد التالي . وهاهي العاصفة مشتدة والريح لم تغير اتجاهها والمد بدأ بالانحسار.

غمر اليأس نفس مرغريت حين سمعت هذه الاخبار المنحوسة ولولا قوة عزيمتها لانهارت وواضافت، بالتالي، بالتالي، الى قلق الشاب المتزايد قلقل اخر.

ولم يستطع السير اندرو اخفاء قلقه عن عيني مرغريت كان الرجل لايقل عنها لهفة للوصول الى صديقه. فكان هذا الانتظار الاجباري شديد الوطأة عليهما معا.

لم تقل مرغريت فيما بعد كيف قضيا ذلك اليوم الممل في دوڤر. كانت خائفة من الظهور خشية ان يكون جواسيس شوڤلان في الجوار، ولذا اتخذت لنفسها غرفة صالون خاصة قضت فيها هي والسير اندرو ساعات وساعات ويتناولان على فترات متباعدة وبلا شهية وجبات طعام تحملها اليهما سالي الصغيرة لاعمل لهما سوى التفكير وتقليب الامر من مختلف الوجوه والعيش على الامل.

لم تهدأ العاصفة الا بعد فوات الأوان فقد انحسر المد انذاك بما لايسمح لاية سفينة بالوصول الى عرض البحر. ثم غيرت الريح اتجاهها وهدأت لتصبح نسيما شماليا غربيا مريحا ـ نعمة ربانية للاسراع بالعبور الى فرنسا.

ولبث الاثنان ينتظران ان تسنح لهما الفرصة لبدء الرحلة. لم يتخلل ذلك الانتظار الطويل الممل سوى ساعات سعيدة واحدة حين نزل السير اندرو الى المرفأ وعاد ليخبر مرغريت بانه استأجر سفينة سريعة ابدى

قبطانها استعداده للنزول الى عرض البحر حال مايرتفع المد.

عندئذ بدأت ساعات الانتظار تتخلص من الملل وتجدد الامل في نفس مرغريت. واخيرا، في الخامسة مساء، اخذت مرغريت طريقها الى المرفأ مسدلة على وجهها نقابا يتبعها السير اندرو فوكس متنكراً بثياب خادم. حاملا بعض الامتعة.

انعشها هواء البحر. وكان الهواء من القوة مايكفي لينفخ في الاشرعة فيدفع السفينة من «خليج فوم» الصغير الى عرض البحر.

كان منظر الغروب رائعا بعد العاصفة، وغمر الهدوء والامل قلب مرغريت وهي تتأمل صخور دوفر تتوارى تدريجيا وراء الافق.

وكان السير اندرو في غاية الكرم والود وحمدت مرغريت الله على على حسن حظها الذي جعلها تستعين به في هذه المحنة.

بدأ ساحل فرنسا يلوح من بين طيات ضباب المساء المتكاثف بسرعة. وامكن رؤية بصيص ضوء أو أثنين وابراج عدة كنائس في عتمة الضباب.

بعد نصف ساعة نزلت مرغريت على الشاطىء الفرنسي. عادت الى البلد الذي يذبح فيه الناس بعضهم بعضا بالمئات ويزج بالاف النساء والاطفال الابرياء في السجون.

لقد كان جو البلد وأهله، حتى في هذه المدينة الساحلية الصغيرة البعيدة ينطق بما فعلته تلك الثورة العاصفة في باريس الجميلة، التي تبعد ثلثمائة ميل عن هذا المكان، باريس الجميلة، التي تبعد ثلثمائة ميل عن هذا المكان، باريس التي تحولت الى كابوس مخيف من دماء الابرياء وعويل الارامل وبكاء الاطفال اليتامى.

هناك يلبس الرجال قلانس حمر، تتفاوت بدرجة النظافة لكنها كلها تحمل الشارة المثلثة الالوان على جانبها الايسر. فارتعدت

مرغريت خوفا وهي ترى الوجوه مكتسية بعلائم المكر والارتياب، بدلا من علائم البهجة والمرح المعروفة عن ابناء بلدها.

لقد اصبح كل واحد الآن جاسوسا على الاخرين: فصارت الكلمة البريئة التي تقال من باب المزاح تكفي لان دليلا على الميول الارستقراطية وحتى الخيانية. حتى النساء علت وجوهن علائم الخوف والبغضاء وراح بعضهن ينظر بفضول وارتياب الى مرغريت حين نزلت الى الشاطىء يتبعها السير اندرو وصرن يغمغمن اثناء مرورها: «ارستقراطية لعينة!» أو «انكليزية ملعونة!»

فيما عدا هذا لم يترك وجودهن اي تأثير. ذلك ان كاليه كانت على صلات تجارية مستمرة مع انكلترا حتى في تلك الايام وكان منظر التجار الانكليز في شاطىء المدينة شيئا مألوفا. وكانت كميات كبيرة من الخمور الفرنسية، بضمنها البراندي، تهرب الى انكلترا بسبب الضرائب الثقيلة المفروضة على المشروبات هناك. وكانت هذه العمليات تثلج قلب البورجوازي الفرنسي. فهو يحب ان يرى الحكومة الانكليزية والملك الانكليزي، اللذين يكرههما، يخسران واردتهما ولذا كان المهربون الانكليز موضع ترحيب وحفاوة في حانات كاليه وبولونيا الخربة.

قاد السير آندرو مرغريت في شوارع كاليه البائسة. ولعل الكثيرين من ابناء المدينة، الذين كانوا ينظرون بحقد الى الغربيين بالملابس الانكليزي، تصوروا انهما جاءا يشتريان بضائع عادية لبلدهما الغارق في الضباب فانصرفوا عن الاهتمام بهما.

وعجبت مرغريت كيف استطاع زوجها بقامته المديدة الجبارة السير في شوارع كاليه من غير ان ينتبه اليه احد، متسائلة في نفسها اي تنكر

بارع استخدم بحيث لم يلفت اليه الانظار وهو ماض للقيام بعمله البيل!

لم يتبادل السير اندرو معها سوى بضع كلمات، بل مضى يقودها عبر الشوارع الى الطرف الاخر من المدينة صوب الطريق المؤدي الى «رأس الانف الرمادي». كانت الشوارع ضيقة ملتوية تفوح منها الروائح الكريهة التي تختلط فيها نتانة الاسماك المتفسخة بعفونة الاقبية الرطبة. وكانت عاصفة الليلة الماضية قد حملت الى المدينة امطارا غزيرة حتى ان قدمي مرغريت صارتا تغوصان حد الكاحل في الاوحال وكانت الطرق شبه خالية من الانارة لا يتبين الانسان دربه فيها.

لكنها لم تعبأ بهذه المزعجات الطفيفة. فقد قال لها السير اندرو حين نزلا من السفينة: «قد نلاقي بلاكني» في «القط الرمادي». فمضت تخوض في الاوحال كأنها تسير على بساط من اوراق الورد. انها في طريقها الى رؤيته.

وصلا اخيرا الى حيث يقصدان. فالسير اندرو يعرف الطريق بلا شك، والا لكان اضاع السبيل في الظلام. وكان الظلام شديدا بالنسبة لمرغريت فلم تر المبنى اول الامر. كان «القط الرمادي»، كما يسميه السير اندرو، نزلا صغيرا منعزلا على مشارف كاليه يقوم على جانب الطريق المؤدي الى «راس الانف الرمادي»، وكان غير بعيد عن ساحل البحر لان هدير الامواج يسمع منهه،

قرع السير اندرو الباب برأس عصاه فسمعت مرغريت من الداخل نوعا من الغمغمة الساخطة مشفوعة بسيل من الشتائم. دق السير آندرو على الباب ثانية بالحاح: فجاء سيل آخر من الشتائم ثم سمع وقع أقدام

ثقيلة تقترب. وفي الحال فتح الباب فوجدت مرغريت نفسها على عتبة اقذر واتعس غرفة رأتها في حياتها.

فورق الجدران، ان كان ورقا اساسا، يتدلى قطعا وسخة بالية من على الجدران. وليس في الغرفة قطعة اثاث واحدة «سليمة» بمعنى الكلمة. فاغلب الكراسي بلا متكأ وبعضها بلا بطانة فيها وقفت احدى الطاولات على ثلاثة ارجل واستعيض عن الرجل الرابعة بحزمة من وكان في احدى زوايا الغرفة وجاق كبير وضع عليه قدر طبخ واسع. تنبعث منه رائحة حساء حار مقبولة على وجه العموم، وفوق احد الجدران شيء يشبه الشرفة اسدلت امامه ستارة بالية مقلمة باللونين الابيض والازرق. وكان هناك درج عتيق يؤدي اليها.

وحفلت الجدران الواسعة، ذات الورق المتآكل الملطخ بشتى انواع الاوساخ، وبكلمات: «الحرية ـ الاخاء ـ المساواة» كتبت بالطباشير بحروف كبيرة.

وينير هذا المبنى المخيف كله سراج زيتي كريه الرائحة معلق في واحدة من جسور السقف الخشبية المتآكلة. وكان المبنى من بشاعة المنظر وشدة القذارة ما جعل مرغريت تخشى الدخول. على ان السير اندرو تقدم الى الداخل بلا تردد وقال بالفرنسية بجرأة:

كان الشخص الذي فتح الباب، استجابة لطرقات السير اندرو ويبدو انه مالك هذا النزل الخرب الكريه، فلاحا عجوزا متين البنيان يلبس بلوزا ازرق وسخا وينتعل قبقاقا ثقيلا باليا وسروالا ازرق حائل اللون والقلنسوة الحمراء الحاملة شارة مثلث الالوان التي لا مفر منها

والتي يستدل منها على اتجاهه السياسي، يحمل غليونا خشبيا قصيرا تنبعث منه رائحة تبغ عفن. نظر الى المسافرين ببعض الارتياب وباحتقار شديد وتمتم: «انكليز ملاعين!» وبصق على الارض ليبين لهما استخفافه بهما، الا انه تنحى جانبا ليسمح لهما بالدخول وهو مدرك، بلاشك ان جيوب هؤلاء «الانكليز الملاعين» عامرة بالمال دائما.

وضعت مرغريت منديلها على انفها الجميل، وهي تدخل الغرفة، وقالت باشمئزاز:

آه ياألهي! مابشع هذه الحفرة! أمتأكدة أنت أن هذا هو المكان؟

أجاب الشاب، وهو ينفض بمنديله الحريري الغبار عن احد الكراسي حتى تجلس مرغريت:

ـ اي! هذا هو المكان.. متأكد تماما. لكن قسما اني لم ار قط مكانا احقر من هذا.

تطلعت مرغريت بفضول وخوف شديدين الى الجدران المتداعية والكراسي المكسورة والطاولة المتأرجحة القلقة وقالت:

ـ صدقني ليس هذا بالمكان الامين.

اما صاحب النزل، الذي يدعى «بروغار» فلم يعر ضيقية مزيدا من الاهتمام. فقد استنتج انهما سيطلبان عشاء في الحال. ثم لا يليق بالمواطن الحر ان يظهر اي اهتمام أو يتعامل بلطف مع أي إنسان بصرف النظر عن نظافة ملابسه واناقتها.

تكور قرب الوجاق شخص ملتف بخرق باليه ـ كانت امرأة وكان من الصعب معرفة ذلك من بين ملابسها الرثة لولا قلنسوتها النسوية، التي كانت بيضاء في وقت من الاوقات، وشيء يشبه التنورة الداخلية. كانت جالسة تتمتم مع نفسها وتحرك الحساء في قدر الطبخ الكبير بين حين

واخر. قال السير اندرو اخيرا:

ـاسمعني ياصاحبي . . . نريد بعض العشاء.

وأضاف مشيرا الى كومة الخرق قرب الوجاق:

ـ المواطنة هناك تطبخ بعض الحساء اللذيذ، واوكد لك ان سيدتي لم تذق طعاما منذ عدة ساعات.

فكر بروغار في الامر بضع دقائق. فالمواطن الحر يجب الا يستجيب بسرعة لما قد يطلبه الناس منه! فغمغم:

ـ ارستقراطثون ملاعين!

وبصق على الارض مرة اخرى. ثم مضى ببطء شديد الى خزانة في احد أركان الغرفة فأخرج سلطانية معدنية عتيقة واعطاها، دون كلام وبنفس البطء، الى «نصفه الحلو» التي راحت تملأ السلطانية من القدر الكبير بصمت.

راحت مرغريت تنظر الى هذه التحضيرات برعب فائق. فلولا أهمية ماجاءت من أجله لكانت هربت من بيت القذارة والروائح الكريهة هذا دون ابطاء.

قال السير اندرو اذ رأى مارتسم على وجه مرغريت من نظرة رعب:

ـ معك حق ياسيدتي! مضيفنا وامرأته ليسا ودوينت. كم كان بودي ان اقدم لك وجبة عشاء افتح للشهية واحلى. . لكن اعتقد بانك ستجدين الحساء مقبولا والنبيذ جيدا. هؤلاء الناس يتمرغون بالقذارة، انما يهتمون بطعامهم عموما. قالت بلطف:

ـ لا، ياسير اندرو، اتوسل اليك ان لاتقلق بشأني. انا لا اكاد افكر بالعشاء.

كان بروغـار ماضيا باعداد المائدة ببطئه الشديد. فوضع ملعقتين وقدحين قام السير اندرو بتنظيفها جيدا.

كذلـك جاء بروغـار بزجاجة نبيذ وبعض الخبز. فبذلت مرغريت جهـدا كبيرا في تقريب كرسيها من المائدة والتظاهر بالاكل. فيما وقف السير اندرو وراءها تمثيلا لدور الخادم. ولما راها عاجزة تماما عن تقبل الطعام قال: لا ياسيدتي.. اتوسل اليك.. ارجوك ان تحاولي ابتلاع بعض الطعام - تذكري انك تحتاجين الى كل قواك.

لم يكن الحساء سيئا، بل بالعكس حسن الرائحة والمذاق. ربما كانت مرغريت ستستسيغه لولا بشاعة الجو المحيط بها. ومع ذلك فقد تناولت كسرة من الخبز وشربت قليلا من النبيذ وقالت:

- لا ياسير اندرو، لا احب ان اراك واقفا. انت بحاجة الى الطعام قدر حاجتي. هذا المخلوق سيظنني امرأة انكليزية غريبة الاطوار هاربة مع خادمها، اذا جلست الى جانبي وشاركتني العشاء.

والحق ان بروغـار، بعدما لاحظ انه وضع المطلوب على المائدة، لم يكلف نفسه مشقة معرفة هوية الضيفين. كانت الام بروغار قد تسللت خارجـة من الغـرفة في حين راح بروغار يدور في المكان من غير شغل يدخن غليونه الكريه رغم انف مرغريت. فهو بعد مواطن حر ومن حقه ان يتصرف كما يحلو له.

قال السير اندرو بغضبه الانكليزي الخاص، لما انحنى بروغار على المائدة بغليونه وراح ينفر باحتقار الى هذين الانكليزيين الملعونين:

- سحقا لهذا المخلوق الفظ!

اسرعت مرغريت تنبه السير اندرو وتلومه، لما رأته يشد قبضة يده بغضب:

ـ استحلفك بالله يارجل أن تتذكر انك في فرنسا وان أمزجه الناس هنا بهذا الشكل، في هذه الايام. فغمغم السير اندرو بوحشية:
ـ بودي ان اكتم انفاس هذا الحيوان.
لكنه أخذ بنصيحة مرغريت وجلس الى المائدة حيث راح كل منهما يبذل جهدا لأهام الاخر بانه يأكل ويشرب. قالت مرغريت:
ـ اتوسل اليك ان لاتثير غيظ هذا المخلوق، لكي يرد على استفساراتنا.
ـ سأبذل قصارى جهدي. لكن والله! سأكتم انفاسه بدلا من سؤاله.
ثم قال بالفرنسية متظاهرا بالمرح وهو يربت على كتف بروغار:
ـ قل لي ياصديقي. هل ترى كثيرين من نوعيتنا في هذه المنطقة؟ أعني مسافرين انكليز كثيرين؟

التف بروغار ونظر اليه من فوق كتفه القريبة ونفث دخان غليونه على مهل ثم تمتم قائلا:
ـ آ.. أحيانا!
فقال السير اندرو بلا مبالاة:

ـ آه! التجـار الانكليز يعـرفـون أين يجـدون النبيذ الجيد.. ها! يا صديقي؟ والان قل لي ـ سيدتي تريد أن تعـرف إن كنت رأيت، بأية صدفـة، أحد اصدقائها من الشخصيات.. سيدا انكليزيا يتردد على كاليه للتجارة. رجل طويل القامة، كان قاصدا باريس هذه المرة وسيدتي تأمل أن تلاقيه هنا في كاليه.
لم تنظر مرغريت الى بروغار مخافة أن تفضح عيناها ما في قلبها من لهفة لسماع جوابه. لكن المواطن الفرنسي «المولود حرا» لم يجد هناك ما يدعوه الى الاسراع بالاجابة. أجاب ببطء شديد بعد صمت:

ـ رجل انكليز طويل؟ اليوم! . . . أجل.

سأله السير اندرو بلا مبالاة:

ـ رأيته؟

فغمغم بروغار باستياء:

ـ نعم، اليوم.

ثم تناول بهدوء قبعة السير اندرو من على كرسي قريب فوضعا على رأسه وسوى بلوزة الوسخ وحاول عموما تقليد حركات الشخص المقصود مبينا انه يرتدي ملابس فخمة وتمتم:

ـ ارستقراطي لعين ذلك الانكليزالطويل!

اوشكت مرغريت أن تصرخ وراحت تتمتم:

ـ انه السير بيري بعينه. . . وبدون تنكر!

ووجدت نفسها، رغم قلقها الشديد ودموعها، تبتسم لفكرة مجيء بيري ليواجه أشد الاخطار وهو في اتم اناقة واغلى ثياب. وتنهدت وقالت:

ـ آه، هذا هو الطيش! أسرع ياسير اندرو! إسأل الرجل متى غادر.

التفت السير اندرو الى بروغار وسأله بنفس التظاهر بعدم المبالاة:

ـ اي ياصاحبي. . إن سيدي يلبس ثيابا جميلة دائما والسيد الانكليز الطويل الذي رأيته هو صديق سيدتي حقا. . . قلت إنه رحل؟

ـ ذهب. . . نعم. . . لكنه سيعود. . الى هنا. . . طلب عشاء. .

ضغط السير اندرو على ذراع مرغريت محذرا، لكن تحذيره جاء متأخرا فقد افلت منها زمام، السيطرة على مشاعرها وغمرها فرح جنوني. اذن فهو سليم معافى وسيعود الى هذا النزل في الحال. . . وسوف تراه ربما بعد بضع لحظات. . . آه! استولى عليها فرح غامر هز كيانها بقوة قالت

لبروغار، الذي تحول في نظرها الى رسول عناية الية فجأة:

- مهلا! . . مهك! قلت ان السيد الانكليزي سيعود الى هنا؟ فبصق رسول العناية الالهية على الارض تعبيرا عن احتقاره لكل من هب ودب من الارستقـراطيين الذين صاروا يترددون على نزل «القط الرمادي». ودمدم قائلا.

- أوهو! طلب عشاء . .

وأضاف كأنه يحتج على كل هذه الضجة التي أثيرت بشأن مجرد رجل انكليزي:

- سيعود . . . الانكليزي اللعين!

فسألته بلهفة وهي تضع يدها الرقيقة على كمة الوسخ:

- لكن أين هو الآن؟ أتعرف؟

أجـاب بكبرياء، وهو ينفض عن كمه تلك اليد الجميلة التي كان الامراء يتنافسون على تقبيلها:

- ذهب ليستأجر حصانا وعربة حمولة.

- متى كان ذلك؟

لكن الظاهر أن بروغار سأم هذهالاستجوابات. فلم يكن يرى من المناسب لمواطن - لا يقل قيمة عن اي واحد - ان يخضع لاستجواب هذين الارستقـراطيين الملعـونين، حتى لو كانا انكليزيين ثريين. وأن الانسب لكرامته الجديدة ان يكون خشنا سيء الخلق قدر المستطاع والا قدم الدليل الاكيد على خضوعه واستعداده للاجابه على اسئلة الناس.

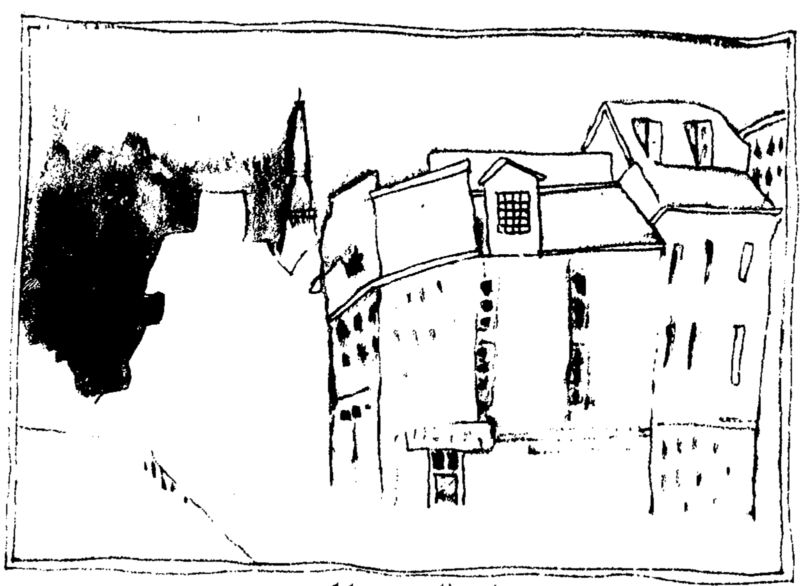
فقال بفظاظة:

- لا دري. انتبهو الي ياارستقراطيين! . . . جاء اليوم.

طلب عشاء. خرج . . سيعود. هذا ماعندي!

بهذا التوكيد الصفيق لحقوقه كمواطن ورجل حر غادر بروغار الغرفة
سادا الباب وراءه بعنف.





الفصل الثالث والعشرون
(الأمل)

قال السير اندزو عندما لاحظ ان مرغريت تبدو متلهفة للمناداة على صاحب النزل ثانية:

. صدقيني ياسيدتي اني ارى من الافضل أن ندعه وشأنه. لن نحصل منه على شيء، وقد نثير شكوكه. الواحد لا يعرف ابدا اي جواسيس يمكن ان يترصدوا الناس في هذه الاماكن الملعونة.

فأجابت بنزق:

ـ ماذا يهمني بعـدما عرفت أن زوجي سالم وأني سأراه مباشرة! فقال محذرا بصدق إذ بصدق إذ راحت من شدة فرحها تتكلكم بأعلى صوتها:

ـ صه! الجدران لها اذان في فرنسا، هذه الايام.

وغادر المائدة بسرعة وعبر الغرفة العارية البالية وراح يصغي من خلف

البـاب الـذي خرج منه بروغار قبل قليل، فلم يسمع سوى اللعنات والشتائم ووقع الخطوات المتثاقلة. كذلك تسلق الدرج المتقلقل المؤدي الى الشرفة المطلة ليتأكد ان لا أحد من جواسيس شوڤلان مختبىء هناك.

قالت مرغريت بمرح ولكنة فرنسية حين نزل الشاب وعاد الى جوارها:

ـ نحن وحدنا يامسيو خادمي. هل لنا أن نتحدث؟ فتوسل اليها قائلا:

ـ بحذر قدر المستطاع!

ـ صدقني يارجل! أراك مكتئب الوجه! فأكاد أطير من الفرح! لا داعي للخـوف بعد الان. سفينتنا عند الشاطىء وخليج فوم لا يبعد سوى ميلين في البحر وزوجي سيأتي الى هنا. . تحت هذا السقف، ربما في مدى نصف ساعة. أكيد! لا شيء يعيقنا. شوڤلان وعصابته لم يصلوا بعد.

ـ لاياسيدتي! هذا مالا نعرفه.

ـ ماذا تعني؟

ـ كان في دوڤر ساعة وصولنا.

ـ وحجزته العاصفة مثلما حجزتنا.

ـ بالضبط. لكني لم اقل لك من قبل ـ حتى لا تخافي ـ أني رأيته على الشاطىء قبل خمس دقائق من ركوبنا السفينة اقسم انه هو الذي رأيت!

كان متنكرا برداء قسيس. حتى حليفه الشيطان ماكان ليعرفه. لكني سمعته يتفاوض لاستئجار سفينة تحمله. بسرعة الى كاليه. لابد انه ابحـر قادمـا بعـد اقـل من ساعة على ابحارنا اختفى الفرح من وجه

مرغريت بسرعة. وفجأة اتضح امام عينيها مدى الخطر الذي ينتظر بيري فعلا وهو على ارض فرنسا.

إن شوفلان في اعقابه. وهنا في كاليه...... هذا الدبلوماسي الداهية. كلمة منه ويطاردون بيري ويلقون القبض عليه و....

تجمدت كل قطرة دم في عروقها. فحتى في اشد ساعات كربها وخوفها بانكلترا لم تدرك تماما حجم الخطر الذي يواجه زوجها. لقد أقسم شوفلان أن يذهب بالزهرة القرمزية الى المقصلة. وها هو البطل الجريء، الذي كان يعتمد في سلامته على مجهولية شخصيته، قد انكشف الان، على يدها هي، وبات معروفا من اشد اعدائع حقدا وضراوة.

حين هاجم شوفلان اللورد توني والسير اندرو فوكس في قاعة المقهى في استراحة الصياد استولى على كل الخطط الخاصة بالعملية الحالية. فمن المقرر ان يلتقي ارمان سان جيست والكونت دوتورناي ولاجئون اخرون بالزهرة القرمزية - او اثنين من مبعوثيه كما هو مقرر في الاصل - في هذا اليوم، الثاني من تشرين الاول، في مكان تعرفه العصبة بلا شك، يدعى من باب التغطية «كوخ الاب برنشار».

كانت صلة ارمان بالزهرة القرمزية وموافقة السياسية الرافضة لسياسة (عهد الارهاب) ماتزال غير معروفة في بلدة. وكان قد غادر انكلترا قبل اكثر من اسبوع حاملا التعليمات اللازمة التي تمكنه من الوصول الى بقية اللاجئين ومن ثم نقلها الى هذا المكان الامين.

هذا ما فهمته مرغريت منذ البداية واكدته تخمينات السير اندرو فوكس. وعرفت ايضا ان السير بيري، بعدما علم بسرقة شوفلان

لتعليماته الى معاونيه، لم يجد المجال الكافي للاتصال بارمان وابلاغه تعليمات جديدة. واذن، فانه واللاجئين الاخرين، يجهلون اي خطر عظيم ينتظرهم وينتظر منقذهم الشجاع.

ان بلاكني، الـذي رسم خطة العملية ونظمها كلها، لايمكن ان يسمح بتعريض اي من رفاقه لخطر الاعتقال. ولذا اسرع يوجه اليهم رسالة مختصرة في حفلة اللورد غرينڤيل يقول: «سأغادر انا شخصيا يوم غد ـ وحدي».

والان وقـد عرف هويتـه اشـد اعدائه نقمة فسوف سطارده اتباع شوڤلان ويتبعون خطواته حتى يصل الى ذلك الكوخ المجهول حيث ينتظره اللاجئون وهناك يطبق الفخ عليهم جميعا.

ليس امام مرغريت وسير اندرو سوى ساعة، هي فترة الفارق في الرحيل من دوڤر، يجب تحذير بيري خلالها من الخطر المحدق واقناعه بترك العملية الطائشة التي لاتعني سوى موته. ساعة فقط!

قال السير آندرو بحرارة:

ـ شوڤلان يعرف عن هذا النزل، من الاوراق التي سرقها، وسوف يأتي الى هنا حال وصوله الشاطىء.

فقالت:

ـ لم يصل بعد. نحن نسبقه بساعة وبيري سيصل بعد قليل.

سنكون قد قطعنا نصف القنال قبل ان يدرك شوڤلان اننا افلتنا من مخالبه.

كانت تتكلم بحـماس ولهفـة، ساعية الى ان تبث في نفس الشاب بعض ذلك الامل المتفائل الذي ما يزال يغمر قلبها، لكنه هز رأسه

بحزن .

قالت بشيء من نفاذ الصبر:

- عدت الى الصمت، سير اندرو؟ لماذا تهز رأسك وتبدو بهذا الاكتئاب؟

- فأجاب :

- صدقيني ياسيدتي، انك بمشاريعك المتفائلة هذه تنسين الجانب الاكثر اهمية .

- ما الذي تعنيه بقولك هذا؟ انا لم أنس شيئا .

ثم اضافت بنفاذ صبر شديد :

- اي جانب تقصد؟

فأجاب السير آندرو بهدوء :

- الجانب الذي يبلغ طوله ستة اقدام ويحمل اسم «بيري يلاكني» .

غمغمت :

- لاافهم .

- اتعتقدين ان بلاكني يغادر كالية دون ان ينجز ما جاء من اجله؟

- تعني . .

- هناك الكونت دو تورناي العجوز . .

فغمغمت :

- الكونت . . ؟

- وسان جيست . . والاخرون . .

فشهقت شهقة ألم من الاعماق قائلة :

- أخي ! ساعدني يارب . لكن اخشى ان اكون نسيت .

- هؤلاء اللاجئون . . هؤلاء الناس، في هذه اللحظة، ينتظرون بثقة

وايمان راسخ وصول الزهرة القرمزية، الذي وعدهم بشرفه أن يوصلهم الى شاطىء السلامة عبر القنال.

لقد نسيت حقاً أعمت بصيرتها أنانية امرأة تحب من كل قلبها فقد كان زوجها هو شغلها الشاغل خلال الاربع والعشرين ساعة الماضية. حياته النبيلة، شبابه، مايتعرض له من أخطار.. هو، المحبوب، البطل الشجاع، هو الوحيد الذي شغل بالها. غمغمت:

- أخي!

وبدأت الدموع الكبيرة تغرق عينيها حين تذكرت آرمان، رفيقها وحبيب طفولتها، الرجل الذي من أجله أرتكبت خطيئة شتيعة باتت تهدد حياة زوجها الشجاع بالموت الأكيد.

قال السير آندرو مفاخراً:

- السير بيري بلاكني ما كان ليستحق الثقة ويكون جديراً بقيادة نخبة من السادة الانكليز لو كان تخلّى عن اولئك الذين وضعوا ثقتهم فيه. أما مسألة جعله يخلف وعده فمجرد التفكير بها ضرب من المستحيل!

ساد الصمت لحظة او إثنتين. فدفنت مرغريت وجهها في يديها وتركت دموعها تنساب ببطء من بين أصابعها المرتجفة. لم يقل الشاب كلمة، لكن قلبه كان يعصره الالم لما تعانيه هذه المرأة الجميلة من حزن بالغ. كان طوال الوقت يشعر بالمأزق الرهيب الذي وضعتهم جميعاً فيه بتصرفها الطائش. إنه يعرف صديقه وزعيمه جيداً، يعرف عنه جرأته التي لا حدود لها، وشجاعته الجنونية وتقديسه لكلمة الشرف والوعود.

ويعرف أن بلاكني يفضل مواجهة أشد الاخطار والتعرض للمهالك على التخلي عن وعد يقطعه وأنه، مع وجود شوڤلان في أعقابه، سيقوم بمحاولة اخيرة، مهما تكن محفوفة بالخطر، لانقاذ أولئك الذين وضعوا ثقتهم فيه.

قالت مرغريت، وهي تبذل جهوداً نبيلة لتجفيف دموعها:
ـ أنت محق ياسير آندرو ولن أخزي نفسي بمحاولة إبعاده عن أداء واجبه. ستكون محاولة غير مجدية، كما تقوله.

وأضافت بحرارة وعزيمة:
ـ فليمنحه الله القوة والقابلية على قهر أعدائه. لن يرفض ذهابك معه ربما، حين يبدأ مهمته النبيلة. أنتما تجمعان الذكاء والبسالة! ليحرسكما الله كليكما! بالمناسبة يجب ألا نضيع دقيقة. مازلت أعتقد بأن سلامته تعتمد على معرفته أن شوفلان في اعقابه
ـ بلاشك. إنه يتمتع بذكاء وقاد. حال مايحسّ بالخطر سيلزم جانب الحذر. وقدرته على الافلات معجزة حقيقة.
ـ إذن مارأيك بجولة استطلاع في القرية بينما انتظر أنا هنا قدومه! قد تعثر على أثر لبيري وبذلك نكسب وقتاً ثميناً.
إذا وجدته فقل له يحذر الخطر ـ ألدّ أعدائه يطارده!
ـ لكن كيف لك أن تمكثي في هذا المكان الحقير؟
ـ لا، هذا لايهمنيّ! ليتك تسأل صاحب النزل الفظ أن يسمح لي بالانتظار في غرفة أخرى لاتجنبّ نظرات الفضوليين. إعطه نقوداً حتى لانسى ان يخبرني عند مجيء الانكليزي الطويل.

وكانت تتحدث بهدوء تام، بل وبشيء من الانطلاق، مفكرة بما تريد القيام به وما ينتظرها، حتى السيء منه. فلن تبدي ضعفاً بعد الآن. ستبرهن على أنها جديرة به، بالرجل الذي يوشك على التضحية بحياته

في سبيل الاخرين .
أطاع السير آندرو أمرها دون تعليق . لقد دلتها غريزتها على أن عقلها هو المسيطر الآن فالرجل المستعد للخضوع يكون اليد المنفذّة بينما هي العقل المدبر.
مضى الى الغرفة الداخلية، التي دخل منها بروغار وزوجته من قبل، فدق عليه ليتلّقى سيلاً من الشتائم. فقال الشاب متظاهراً بالمرح :
- هاي! صديقي بروغار! سيدتي تريد الاستراحة هنا بعض الوقت. هل بالأمكان اعطاؤها غرفة أخرى؟ هي ترغب في البقاء على انفراد.
أخرج بعض النقود من جيبه وراح يهزها بيده بصوت مسموع. ففتح بروغار الباب وراح يصغي ، عابساً منقبض الطبع الى رجاء الشاب. وعندما وقع بصره على القطع الذهبية لانت ملامحه وتغيّر سلوكه وأخرج غليونه من فمه ودخل الغرفة متثاقلاً ثم أومأ من فوق كتفه الى الشرفة (العلّية) القائمة فوق الجدار قائلاً :
- يمكنها الانتظار هناك مريحة . . وماعندي غرفة غيرها قالت مرغريت بالانكليزية :

فقد أدركت في الحال مافي هذا المكان المحجوب عن الانظار من فوائد . وأضافت :
- إعطه النقود ياسير آندرو. سأكون في تمام السعادة هناك وأرى كل شيء دون أن يراني أحد .

واومأت لبروغار بالموافقة فصعد هذا الى العلية لنفض الاوساخ عن القش المفروش على أرضها .

قال السير آندرو إذ تهيأت مرغريت لصعود السلم المتأرجح القلق :
ـ أرجوك ياسيدتي أن لاتتسرعى . تذكري أن المكان موبوء بالجواسيس .
أتوسل اليك أن لاتكشفي عن نفسك للسير بيري إلا إذا تأكدت تمام من أنكما وحدكما .
شعر وهو يتحدق بأن تحذيراته هذه لم تكن قط ضرورية ، فقد كانت مرغربت هادئة ، صافية الذهن مثل أي رجل . فلاخرف أن ترتكب أي عمل طائش . قالت في محاولة مرح بسيطة :

ـ لا . أعدك بهذا باخلاص . لن أعرض حياة زوجي للخطر ، ولاخططه للفشل ، بالتحدث اليه أمام الغرباء . لاتخف سأترقب الفرصة المناسبة وسأخدمة بالطريقة التي يحتاجها أشد الحاجة .
نزل بروغار من العلّية فتهيأت مرغريت للصعود الى ملجئها الأمين قال السير لمّا بدأت ترتقي درجات السلّم :
ـ لاأجرؤعلى تقبيل يدكِ ياسيدتي لأنيّ لست سوى خادمك .
أنّما أتوسل اليك أن تبتهجي . إذا لم أعثر على بلاكني في مدى نصف ساعة عدت لألقاه هنا .

ـ أجل ، هذا الأفصل . يمكننا الانتظار نصف ساعة شوڤلان لايمكن أن يصل الى هنا قبل هذا الوقت . أدعو من الله أن يساعدنا ، أنت أو أنا ، على رؤية بيري حينئذٍ . أرجولك التوفيق ياصديقي ! لاتخف عليّ .
أرتقت درجات السلم الخشبي المتأرجح بخفة . فأنصرف عنها بروغار . هي تعرف كيف تجد راحتها على القش . راقبها السير آندرو الى أن صعدت وجلست على القش وأسدلت الستارة البالية ولاحظ الشاب أنها ارتاحت في جلستها الغريبه تلك وصار بامكانها أن ترى

وتسمع من غير أن ينتبه أحد لوجودها .

أجزل السير آندرو العطاء لبروغار بما جعل صاحب النزل العجوز لا يرى مصلحة في الغدر بها . وتهيأ الشاب للأنصراف . عند وصوله الباب التفت مرة أخرى والقى نظرة على العليّة . كان وجه مرغريت الحلو يتطلع اليه من خلال شقوق الستارة العتيقة ففرح حين رآها تنظر بهدوء ووقار وتبتسم بعذوبة . فأومأ اليها برأسه مودعا وخرج الى ظلمة الليل .



الفصل الرابع والعشرون
(فخ الموت)

مر ربع الساعة التالي بهدوء وبمثل لمح البصر، كان بروغار خلاله مشغولا بتنظيف المائدة واعدادها لضيف اخر.

وربما تكون مرغريت هي التي شعرت بأن الوقت يمر بسرعة ويسر لانها انشغلت بمراقبة هذه التحضيرات من مخبئها في العلية. كانت المائدة تعد لعشاء بيري. فلاشك ان بروغار يكن قدرا معينا من الاحترام للانكليزي الطويل. اذ كان حريصا على جعل المكان يبدو اقل بؤسا من ذي قبل.

بل انـه استخـرج من مكـان خفي من الخزانة العتيقة مايبدو مثل شرشف مائدة. وعندما نشر على المائدة وراه مليئا بالثقوب هز راسه حيرة ورددا وبدا عليه الاستياء من نشر الشرشف اكثر مما فيه من عيوب.

ثم اخرج منديل مائدة (فوطة مائدة) عتيقا) عتيقا باليا ايضا، الا انه على شيء من النظافة وراح يمسح به الاقداح والملاعق والصحون بعناية ويضعها على المائدة.

لم تملك مرغريت الا ان تبتسم وهي تراقب كل هذه الاستعدادت التي راح بروغار يقوم بها مصحوبة بسيل من الشتائم المكتومة.

فالواضح ان قامة الانكليزي الطويلة وهيكله الجبار، او شدة قبضته قد ارعبت المواطن الفرنسي الحر والا ما كان ليتهم هكذا باي ارستقراطي لعين!

تأمل بروغار المائدة، بعد اعدادها، بارتياح واضح. ثم نفض الغبار عن أحد المقاعد بطرف بلوزة والقى بحزمة جديدة من عيدان الحطب في النار وجر قدميه جرا الى خارج الغرفة.

لبثت مرغريت في مكانها تتأمل الامور. كانت قد فرشت عباءة السفر على القش وجلست بشيء من الارتياح. فقد كان القش جديدة من عيدان الحطب في النار وجر قدميه جرا الى خارج الغرفة.

لبثت مرغريت في مكانها تتأمل الامور. كانت قد فرشت عباءة السفر على القش وجلست بشيء من الارتياح. فقد كان القش جديدا وكانت هي بعيدة الى الى حد ما عن الروائح الكريهة المنبعثة من الاسفل.

كانت سعيدة في تلك اللحظة. سعيدة لانها، وهي تسترق النظر من خلال شقوق الستارة، لم تر الا كرسيا باليا وشرشف مائدة ممزقا وقدحا وصحنا وملعقة. وحسب. لكن تلك الاشياء الصماء القبيحة كانت تقول لها انها تنتظر بيري... انه سيأتي سريعا، حالا... وانهما سيجتمعان اذا ظلت الغرفة الرثة خالية.

كانت الفكرة من الجمال ماجعل مرغريت تغلق عينيها عن كل شيء

عداها. كلها دقائق قليلة ويجتمعان على انفراد. ستنزل الدرج راكضة وتجعله يراها فيأخذها بين ذراعيه، وعندئذ ستجعله يرى انها مستعدة للموت بسرور في سبيله ومعه. فما من سعادة في الارض اعظم من هذه السعادة في نظرها.

ثم ماذا يمكن ان يحدث؟ لم تستطع أن تخمن شيئا، اي شيء. كانت تعرف بالطبع ان السير اندرو مصيب، أن بيري لايتراجع عما جاء من اجله وانها ـ وقد جاءت الى هنا ـ لا تقدر على شيء أكثر من تحذيره مادام شوڤلان في اعقابه.

بعد تحذيره لا تملك الا ان تودعه وهو ذاهب لانجاز مهمته الجريئة الخطرة. فهي لن تسطيع، سواء بالكلمة او النظرة، ان تحاول منعه من الذهاب. إنها لا تملك الا ان تطيع كل ما يطلبه منها، حتى ولو طلب منها ان تتوارى وتنتظر، في اشد حالات الحزن والخوف، بينما يمضي هو الى حتفه.

لكن هذا كلّه يبدو أهون بكثير من أن يظل يجهل كم هي تحبه وأن يبقى لها بأي ثمن. إن الغرفة الخربة الرثة نفسها تقول لها انه سيأتي حالا.

وفجأة التقطت أذناها المرهفتان للغاية وقع خطوات تقترب. قفز قلبها بين ضلوعها فرحا! هذا بيري وصل أخيرا؟ لا.. الخطوة ليست واسعة ولا راسخة خطوات بيري. أجمل! تلك هي الحقيقية! رجلان قادمان. لعلهما غريبن جاء ليتناولا كأسا أو...

لكنها لم تجد الوقت الكافي للتخمين، فقد جاء نداء من عند الباب فيه لهجة الأمر، وسرعان مافتح الباب من الخارج بعنف فيما صاح صوت آمر خشن:

ـ أنت! يامواطن بروغار، أنت هنا!

لم تسطع مرغريت رؤية القادمين الجدد، لكنها كانت تستطيع من خلال شق في الستارة، أن ترى جانبا من الغرفة.
سمعت خطوات بروغار البطيئة وهو قادم من الغرفة الداخلية مرسلا شتائمه، وعندما رأى الغرباء توقف في وسط الغرفة ـ في مدى رؤية مرغريت ـ ونظر اليهم باحتقار أشد من الاحتقار الذي أنعم على ضيفيه السابقين، ودمدم قائلا:
ـ قسس ملاعين!

شعرت مرغريت في الحال كأن قلبها توقف عن الخفقان. وتركزت عيناها، وقد اتسعتا رعبا، على واحد من القادمين تقدم بسرعة نحو بروغار في تلك اللحظة. كان مرتديا ثياب قسيس وقبعة عريضة وحذاء ذا إبزيم، مما يرتديه راعي الكنيسة (القسيس) الفرنسي عادة. لكنه حين وقف قبالة صاحب النزل ازاح رداءه الكهنوتي لحظة ليكتشف عن وشاح المسؤولين الحكوميين ذي الالوان الثلاثة، الذي ما ان رآه بروغار حتى انقلب موقفه من الاحتقار الى الخوف والتذلل.
جمد الدم في عروق مرغريت لدى رؤيتها هذا القسيس الفرنسي.
لم تر وجهه الذي اخفته القبعة الكهنوتية العريضة، لكنها عرفت اليدين العظيمتين النحلتين واحد يداب الظهر اليسير، هيئة الرجل بمجموعها! إنه شوڤلان!
صعقها الرعب، وأوشك أن يغمى عليها من فرط الشعور بالخيبة والخوف مما سيأتي. قال شوڤلان مخاطبا بروغار بعجرفة:
ـ صحن حساء وزجاجة نبيذ، ثم ارغرب من هنا... مفهوم؟ أريد أن أبقى وحدي.

أطاع بروغار بصمت ومن غير تذمر. وجلس شوڤلان الى المائدة التي كانت قد اعدت للأنكليزي الطويل فيما وقف صاحب النزل متذللاً بين يديه يصب له الحساء ويملأ له القدح بالنبيذ. ووقف الرجل الذي جاء مع شوڤلان، ولم تستطع مرغريت رؤيته، منتظرا عند الباب. وباشارة خشنة من شوڤلان أسرع بروغار عائدا الى الغرفة الداخلية. ثم نادى هذا الرجل الذي جاء معه.

وما أن رأته مرغريت حتى عرفته في الحال: كان ذلك الرجل «ديغا»، سكرتير شوڤلان وذراعه الأيمن، الذي راته في باريس مرات كثيرة في الماضي. عبر الرجل الغرفة ووقف يصغي عند باب بروغار بضع لحظات. سأله شوڤلان بأقتضاب:

ـ لا يسترق السمع؟

ـ كلا أيها المواطن.

خافت مرغريت أن يأمر شوڤلان تابعه ديغا بتفتيش العلية. ماذا سيكون حالها لو عثر عليها! لم تجرؤ على مجرد تصور مايحدث. ولكن يبدو، لحسن الحظ، أن شوڤلان كان يريد التحدث مع سكرتيره اكثر مما يفكر بالجواسيس ولذا اسرع يستدعيه. سأله:

ـ السفينة الانكليزية؟

أجاب ديغا:

ـ فقدوا اثرها عند الغروب، أيها المواطن، ثم شوهدت متجهة غربا صوب «رأس الانف الرمادي».

فغمغم شوڤلان:

ـ آه، جيدا! والان ماذا عن الكابتن جوتلي! ماذا قال؟

ـ اكد لي أن جميع الاوامر التي ارسلتها اليه في الاسبوع الماضي نفذت

بحذافيرها. كل الطرق المؤدية الى المكان مراقبة ليل نهار منذ ذلك اليوم، وتم تمشيط الشاطىء والصخور بمنتهى الدقة، وهي تحت المراقبة.

- هل يعرف أين «كوخ الأب بلانشار» هذا؟

- كلاّ، أيها المواطن. لا أحد على مايبدو يعرف مكانا بهذا الاسم. يوجد عدد من اكواخ صيادي السمك على الشاطىء بالطبع، فقاطعته شوڤلان بنفاذ صبر:

هذا يكفي. ماذا عن الليلة؟

- الطرق والشاطىء تحت المراقبة كالعادة، ايها المواطن، والكابتن جوتلي ينتظر اوامركم الجديدة.

- عُد اليه في الحال. قل له يرسل تعزيزات لكل الدوريات وخاصة المنتشرة منها على الشاطىء - تفهم؟

كان شوڤلان يتكلم باقتضاب وبصورة محددة. وكانت كل كلمة يتفوه بها طعنة الى قلب مرغريت وامالها. مضى يقول:

- على الرجال أن ينتبهوا لاي غريب يأتي، ماشيا او راكبا جوادا او يقود عربة في طريق الشاطىء، وخاصة غريب طويل القامة لا احتاج الى وصفه اكثر، لانه قد يأتي متنكرا. لكنه لن يستطيع اخفاء طوله الا اذا مشى منحيا. . تفهم؟

فأجاب ديغا:

- تمام الفهم، أيها المواطن.

- حال مايرى الرجال غريبا فليراقبه اثنان. اي واحد الغريب الطويل القامة يغيب عن ناظريه سيدفع حياته ثمنا لاهماله. يجب ان يأتي واحد من الرجال لاخباري رأسا. هل هذا واضح؟

- تمام الوضوح ايها المواطن.

ـ حسنا اذن. اذهب لرؤية جوتلي حالا. اجعل التعزيزات ترسل الى الدوريات، ثم اطلب من الكابتن ان يمدك بستة جنود وجىء بهم الى هنا. يمكنك ان تعود في مدى عشر دقائق. اذهب.

فأدى ديغا التحية وتوجه الى الباب.

اتضحت امام مرغريت خطة اعتقال الزهرة القرمزية وضوحا مخيفا، وهي تصغي خافقة القلب مرعوبة الى اوامر شوفلان لاتباعه اراد شوفلان ان يترك اللاجئين يتوهمون انهم في مأمن، منتظرا ان ينضم بيري اليهم. عندئذ يلقى القبض على المنقذ الجريء متلبسا بجريمة مساعدة الملكيين المتآمرين خونة الجمهورية. حتى اذا أثار اعتقاله ضجة في الخارج، عجزت حتى الحكومة البريطانية عن الاحتجاج قانونيا. ويصبح من حق فرنسا ان تحكم عليه بالاعدام لتآمره مع اعداء الحكومة الفرنسية.

ان افلاته منهم مستحيل. فكل الطرق مراقبة والفخ محكم والشبكة منشورة. صحيح انها منشورة على مساحة واسعة في الوقت الحاضر الا انها ستضيق وتضيق حتى تطبق اخيرا على المنقذ الذي لن يستطيع حتى دهاؤه الخارق عندئذ ان ينقذه منها.

كان ديغا يهم بالانصراف، حين ناداه شوفلان ثانية. تساءلت مرغريت حائرة ترى أية خطط شيطانية اخرى يمكن ان يرسم للايقاع برجل شجاع... رجل واحد بازاء عشرين! نظرت اليه حين التفت للتحدث مع ديغا فلاح لها وجهه من تحت القبعة الكهنوتية العريضة فقرأت فيه، في تلك اللحظة حقدا مميتا، ورأت في الوجه النحيف والعينين الشهلاوين من الكراهية الشيطانية ماقتل كل أمل في نفس مرغريت وشعرت بأنها لايمكن ان تتوقع اية رحمة من هذا الرجل.

كرر شوفلان القول، وهو يقهقه بشكل مخيف ويفرك يديه اللتين

تشبهان ايدي الهياكل العظيمة بحركة تدل على الارتياح الشيطاني :
- نسيت أن ان انبهك الى ان الغريب الطويل القامة قد يقاوم. فلا تطلقوا النار عليه، تذكروا. . . الا عند الضرورة القصوى. اريد ذلك الغريب الطويل القامة حيا. . . اذا امكن.

ضحك ضحكة الشياطين لرؤية تعذيب الكافرين - كما يقول دانتي شعرت مرغريت بأنها رأت من الرعب والكرب حتى الان اقصى مايتحمله قلب الانسان. لكنها حين وجدت نفسها وحيدة مع هذا الشيطان في هذا الشيطان في هذه الغرفة الحقيرة، بعد ذهاب ديغا، شعرت بأن ما عانته لاشيء بالمقارنة مع ماتعانيه في هذه اللحظة. فيما لبث هو يضحك ويقهقه مع نفسه ويفرك يديه فرحا بفوزه المنتظر.

لقد أحسن رسم خططه ولابد ان يفوز! فلم يترك اية ثغرة قد يهرب منها اشجع الرجال واوسعهم حيلة. فكل الطرق تحت الحراسة وكل زاوية تحت المراقبة. وهناك في ذلك الكوخ الصغير المنعزل في مكان من الشاطىء ينتظر نفر من اللاجئين منقذهم مستدرحينه بذلك الى الموت. وهاهو الشيطان في ثياب الرهبان، عازم بكل مافي نفسه من شيطانية على ان لايسمح للرجل الشجاع بالموت ميتة سريعة مفاجئة مثل جندي في الميدان.

انه يشتهي، اكثر من اي شيء آخر، ان يجرد عدوه الذي دوخه طويلا، من كل حول وقوة. يشتهي ان ينظر اليه بتشف حقود، ان يستمتع بسقوطه وان يصب عليه كل ماتبتكره نفسه الحقود من انواع التعذيب النفسي والعقلي. ان النسر الشجاع الذي يؤسر ويقص جناحاه محكوم عليه ان يتحمل عذاب الفئران تنهش في جسده. وهاهي زوجته، التي احبته، والتي اوقعته في هذا المأزق لا تستطيع ان تفعل

شيئا لمساعدته.

لا شيء سوى الامل بان تموت الى جانبه، ان تتاح لها لحظة قصيرة تعترف له بمدى حبها له - حبا حقيقيا جارفا - له وحده.

كان شوفلان جالسا قريبا من المائدة، وكان قد نزع القبعة الكهنوتية فاستطلعت مرغريت حدود وجهه النحيف وذقنه المدبب وهو منهمك بتناول عشائه المتواضع. كان بادي الارتياح وراح ينتظر بهدوء تام، بل انه بلغ من شدة ارتياحه ان وجد طعام بروغار غير المستساغ لذيذا. وعجبت مرغريت كيف يمكن لانسان واحد ان يحمل في نفسه كل هذا الحقد والضغينة على غيره.

وبينما هي تراقب شوفلان هز سمعها صوت حول قلبها الى صخر، رغم انه صوت لايمكن ان يخيف انسانا، ذلك لانه لم يكن سوى موسيقا صوت بهيج دافق بالحيوية يغني بحماس نشيد «يحفظ الله الملك!»





الفصل الخامس والعشرون
(النسر والثعلب)

كادت انفاس مرغريت ان تتوقف وشعرت بان حياتها توقفت في حالة سكـون وهي تصغي للصـوت ولـذلك النشيد. فقد عرفت في المنشد زوجها. شوفلان ايضا سمع النشيد فالقى نظرة خاطفة على الباب ثم اسرع يلتقط قبعته العريضة ويغرسها في راسه.

اقترب الصوت. فتملكت مرغريت رغبة جارفة تعدو نازلة وتنطلق خارجة من الغرفة لتوقف ذلك النشيد باي ثمن، لتتوسل الى المنشد ان يهرب - يهرب بجلده، قبل فوات الاوان. لكنها كبحت هذه الرغبة في نفسها في الوقت المناسب. فلم يكن شوفلان ليتركها تصل الى الباب. ثم هي لا تدري ان كان هناك جنود منتشرون حول النزل فتكون اية

حول النزل فتكون اية حركة متسرعة من جانبها سببا في الاسراع بقتل من تفضل ان تفديه بحياتها.

يحفظ الله الملك
ليحكمنا طويلاً

انطلق ينشد بحماس اشد من ذي قبل. وفي اللحظة التالية فتح الباب وساد الصمت. لم تستطع مرغريت رؤية الباب فحبست انفاسها محاولة ان تتصور مايدور في الاسفل.

رأى بيري بلاكني حال دخوله القسيس جالسا الى المائدة. لم يتردد سوى بضع ثوان وسرعان مارأت مرغريت قامته المديدة وهو يعبر الغرفة وينادي بصوت عال مرح:

- هلو، يامن هناك! مامن أحد؟ أين هذا الاحمق بروغار؟

كان لابسا معطفه وبدلة الفروسية الرائعين اللذين رأتهما مرغريت حين غادر ريشموند قبل عشرات الساعات. كان في كامل اناقته المعهودة ويداه البيضاوان الناعمتان غارقتان في الاكمام الحريرية وقد مشط شعره وصففه بعناية (المونوكل)(*) بطريقته الجميلة المألوفة. والحق ان البارون السير بيري بلاكني بدا في تلك اللحظة كأنه ذاهب الى حفلة في الهواء الطلق يقيمها ولي العهد، وهو في الواقع ذاهب برجليه الى فخ قاتل نصبه له الد اعدائه.

وقف في وسط الغرفة لحظة، بينما شل الرعب مرغريت فما عادت تقوى على التنفس. وصارت تنتظر في كل لحظة أن يعطي الاشارة حتى يمتلىء النزل بالجنود، وحتى تنزل مسرعة لتقف الى جانب بيري وتقاتل معه. واوشكت، وهي تراه واقفا في وسط الغرفة، ان تصرخ بلا وعي:

ـ أهرب يابيري ـ هذا وعدك اللدود! أهرب قبل فوات الاوان! لكنها لم تجد الوقت الكافي لتفعل اذ مشى بلاكني بهدوء الى المائدة وضرب بمرح على ظهر القسيس وقال بلهجته الرخوة المصطنعة:

ـ ياللعجب! أررر... مسيو شوفلان... قسماً ماكنت أظن أبداً سأراك هنا.

كاد شوفلان أن يغص بالحساء. فازرق وجهه الشاحب. وجاءت نوبة سعال عنيفة لتنقذ المندوب الفرنسي الماكر من علائم الدهشة والمباغتة الشديدتين اللتين استولتا عليه. فلاشك انه لم يكن قط يتوقع حركة جريئة كهذه من جانب عدوه، وقد اربكته هذه الجرأة الوقحة تماما لبضع لحظات.

واضح انه لم يتخذ الاحتياطات ويطوق النزل بالجنود في بادىء الامر. وواضح أن بلاكني قد انتبه الى هذه الحقيقة ولاشك انه بما يتمتع به من ذكاء لامع، قد رسم خطة يستطيع بها تحويل هذه المقابلة المفاجئة لخدمته.

لبثت مرغريت جامدة في مكانها من العلية. فقد وعدت السير اندرو وعد شرف بأن لاتكلم زوجها امام الغرباء. وهي تملك من ضبط النفس مايجعلها تمسك نفسها عن التدخل في خططه بطيش وتهور وعرقلتها بالتالي. لكن الجلوس بهدوء ومراقبة هذين الرجلين وجها لوجه ليس بالامر السهل. لقد سمعت شوفلان يأمر بمراقبة كل الطرق، وتعرف ان بيري اذا غادر نزل (القط الرمادي) هذا الان فلن يبتعد كثيرا ـ في اي اتجاه كان ـ دون ان تلاحظه دوريات الكابتن جوتلي. اما اذا بقي في النزل فان ديغا سيعود ومعه الجنود الذين ارسل شوفلان في طلبهم.

الفخ يطبق، ومرغريت لا تملك الا ان ترى وتتساءل. كان الاثنان متناقضين بشكل غريب واغرب من هذا ان شوڤلان هو الذي بدا عليه بعض الخوف. كانت. كانت مرغريت تعرفه تمام المعرفة وتعرف مايدور في رأسه. لم يكن خائفا عن نفسه رغم وجوده بمفرده في هذا المكان المنعزل مع عدو جبار ومغامر طائش بدرجة تفوق حدود المعقول. وتدري ان شوڤلان لا يبالي بالمخاطر خدمة للقضية التي يؤمن بها، لكن الذي يخشاه في هذه اللحظة ان يطرحه الانكليزي الوقح ارضا وبذلك يزيد من فرصة في الهرب: ذلك لان اتباعه قد لا ينجحون في القبض على الزهرة القرمزية بدون عقل مدبر كشوڤلان.

على ان ممثل الحكومة الفرنسية لم يكن في تلك اللحظة، يخشى شيئا من غريمه الجبار اذ لم يفعل بلاكني، صاحب الضحكة البلهاء والوجه البشوش، سوى اترتيب بلطف على ظهره قال ببشاشته المعهودة:

- أنا شديد الاسف. . .، . متأسف جدا. . . لاني ازعجتك على ما يبدو. . . وانت تتنازل حساء ايضا. . . شيء مقرف. . قبيح . . الحساء. . . ارر. . اي والله! . . . صديق لي مات مرة. . . أررر. . اختنق. . مثلك. . . بملعقة من الحساء.

وابتسم بحياء وبشاشة وهو ينظر الى **شوڤلان. ومضى يقول**، حال استرد الاخير انفاسه:

- تبا لهذه الحياة! هذه حفرة قذرة. . . أليس كذلك؟

- ثم اضاف بلهجة اعتذار وهو يجلس الى المائدة ويسحب سلطانية الحساء اليه:

- عندك مانع؟ هذا الاحمق بروغار نائم أو أي شيء. كان هناك صحن

آخر على المائدة فافرغ فيه حساء بهدوء وصب لنفسه كأسا من النبيذ.

ساءلت مرغريت نفسها ماذا سيفعل شوڤلان! كان متنكرا بمنتهى البراعة وربما فكر، بعدما تخلص من تأثير المفاجئة، بانكار هويته الحقيقية، لكن شوڤلان كان أذكى بكثير من ارتكاب خطأ صبياني كهذا، اذ بادر هو الآخر يمد يده داعيا بلاكني الى المشاركة قالت بسرور:

ـ أنا مسحور برؤيتك حقا ياسير بيري. اعذرني... هممم... ظننتك في الجانب الآخر من القنال. المفاجأة اذهلتنيس بعض الشيء.

فقال السير بيري بابتسامة بشوشة مصطنعة:

ـ لا! اذهلتك تماما، يامس... أرررر. ياميسو...

تر... شوبرتان؟

ـ عفوك ـ شوڤلان.

ـ أرجو المعذرة.. الف مرة. اجل، شوڤلان.. بالطبع. أررر... انا لم أتالف ابدا مع الاسماء الاجنبية.

راح يأكل حساءه بهدوء ويضحك ببشاشة كأنه ماجاء الى كاليه الا لغرض واحد هو الاستمتاع بالعشاء في هذا النزل القذر الحقير يصحبه عدوه اللدود.

عجبت مرغريت اول الامر لامتناع بيري عن طرح خصمه ارضا في الحال ـ ولاشك ان فكرة من هذا القبيل خطرت بباله لان عينيه الخاملتين كانتا تلمعان بالوعيد حين تنظران الى شوڤلان الضيئل الذي كان قد استعاد سيطرته على نفسه تماما وراح يأكل الحساء بهدوء هو الآخر.

لكن العقل الحاذق، الذي رسم ونفذ العديد من العمليات الجريئة، كان يرى ابعد من ذلك، ابعد من التعرض لاخطار لا لزوم لها، فقد يكون هذا المكان موبوء بالجواسيس. وقد يكون صاحب النزل واحد منهم. ان صيحة واحدة من شوڤلان قد تأتي بعشرين من اعوانه ويجد بلاكني نفسه في هذه الحالة محاصرا مغلوبا على امره قبل أن يتمكن من مساعدة اللاجئين او تحذيرهم على الاقل. ان لا يخاطر بمسألة كهذه. فهو يسعى لمساعدة الآخرين، لايصالهم الى بر السلامة، لانه اعطاهم كلمة اعطاهم كلمة شرف ولن يتراجع عن كلمته. راح يفكر ويخطط وهو يأكل ويتحدث مع شوڤلان، بينما راحت المرأة المسكينة القلقة المختبئة في العلية تجهد ذهنا بما يجب ان تفعله وتتحرق شوقاً للنزول اليه، لكنها تخشى القيام بأية حركة مخافة أن تفسد خططه. قال بلاكني بمرح:

ـ ماكنت ادري انك... أررر... قسيس

فقال شوڤلان متلعثماً:

ـ أنا... أررر. هممم...

اخرجته برودة غريمه ووقاحته من توازنه الاعتيادي، بينما مضى السير بيري بطريقته الرخوة وهو يصب لنفسه كأسا أخرى من النبيذ:

ـ لكن، عجبا، كان المفروض أن أعرفك رغم أن الشعر المستعار والقبعة قد غيرا من شكلك بعض الشيء.

ـ أتعتقد ذلك؟

ـ إي والله! يغير الشكل كثيرا... لكن... بالله عليك! هل أزعجتك ملاحظتي؟ لعن الله هذه الطريقة في ابداء الملاحظات.... ارجو أن لاتنزعج؟

فأسرع شوفلان يقول مغيرا موضوع الحديث:
ـ لا، لا، أبداً. . . . هممم! آمل أن تكون الليدي بلاكني بخير.

أكمل بلاكني طعامه بتأن شديد وشرب كأس النبيذ، وخيل لمرغريت أنه ألقىٰ نظرة سريعة على ارجاء الغرفة من حوله. قال أخيرا بنبرة جافة:
ـ على خير مايرام. شكرا.

حل صمت راحت مرغريت اثناءه تراقب هذين الغريمين اللذين راح كل منهما يدرس الاخر ويزنه. كانت ترى بيري بوضوح حيث جلس على بعد عشر يارادت من المكان الذي تكورت فيه حائرة لاتدري ماذا تفعل، أو بماذا تفكر. لقد سيطرت الان على رغبته الجارفة بالنزول وفضح وجودها في هذا المكان. ان رجلا، كزوجها، له هذه القدرة على التصرف بالطريقة التي تراها الان، لايحتاج الى تحذير من إمرأة.

راحت مرغريت تستمتع بالسعادة الحبيبة الى نفس كل إمرأة، سعادة النظر الى الرجل الذي تحب. رحت تنظر من شقوق الستارة الى وجه زوجها الوسيم، الى ماوراء العينين الزرقاوين الخاملتين والابتسامة البلهاء. انها تستطيع ان ترى وراءهما بوضوح الان القوة والحيوية وسعة الخيال التي جعلت الزهرة القرمزية موضع احترام وثقة عظيمين من قبل اتباعه. قال لها السير اندرو مرة: «ان هناك تسعة عشر رجلا، بضمنهم أنا، مستعدين للتضحية بحياتهم من اجل زوجك، ياليدي بلاكني»، واذ نظرت الى الجبين المائل القوي العريض والعينين الزرقاوين الغائرتين قليلا اللامعتين، الى دلائل الرجولة والحيوية المختفية وراء هذا الدور الهزلي المضبوط، الى قوة الارادة التي تفوق قدرة البشر والذكاء المدهش، استطاعت ان تفهم ماله من تأثير ساحر على زملائه وأتباعه. اذن فهو لم

يقتصر بسحره وجاذبيته عليها وحدها؟

القى شوڤلان، الذي كان يحاول اخفاء ضيقه تحت ستار الدماثة، نظرة سريعة على ساعته. ديغا لن يتأخ. كلها دقيقتان أو ثلاثة ويكون هذا الانكليزي الوقح مطوقا بجنود الكابت جوتلي المخلصين. سأل بلا مبالاة:

ـأنت في طريقك الى باريس ياسير بيري؟

فأجاب بلاكني ضاحكاً:

ـ لا. الى جد ليل (ليبّي).... مكـان بغيض غير مريح باريس... بالنسبة لي. باريس بالنسبة لي.. الان فقط.. هايامسيو شوبرتان... المعذرة... شوڤلان!

فرد عليه شوڤلان بسخرية:

ـ بالنسبة لانكليزي مثلك ساسير بيري لا يهتم بالصراع الناشب هناك.

ـ سحقـا! انت ترى ان الامر لا يعنيني، وحكومتنا الملعونة تقف الى جانبكم تماما في هذا الموضوع. العجوز پث لا يجرؤ على أن يقول «كش» للدجاجة!

اضاف حين راى شوڤلان ينظر الى ساعته ثانية:

ـ أراك مستعجلا ياسيدي... موعد ربما... أرجوك لاتجاملني... أنا وقتي كله فراغ.

نهض عن المـائـدة وسحب كرسيا الى جوار الـوجاق. ومرة اخرى تملكت مرغريت الرغبة الجنونية بالذهاب اليه لان الوقت يمر بسرعة ديغا قد يعود في لحظة ومعه الجنود.. بيري لا يعلم بهذا و... آه! ما افظع الأمر ـ وما اعجزها عن فعل شيء! استمر بيري قائلا ببشاشة:

ـ أنا لست مستعجلا. لكن، لا! لن ابقى أطول من هذا في هذه

الحفرة.

وأضاف، حين رأى شوڤلان يتطلع الى ساعته مرة ثالثة:

ـ لكن، صدقني، ياسيدي، أن ساعتك هذه لن تركض مهما نظرت اليها. أنت على موعد، ربما؟

ـ اي. . . على موعد!

فضحك بلاكني قائلا:

ـ لا مع سيدة، كما اعتقد يامسيو قسيس! الكنيسة لا لاتسمح؟ ها؟. . . ماذا! لكن، أقول: تعال قرب النار. . . . الجو بدأ يبرد.

ورفس قطع الخشب بعقب حذائه فتأججت النار في الوجاق العتيق. لم يكن يبـدو عليه استعجال الذهاب والظاهر أنه كان غافلا تماما عما ينتظره من أخطار. جذب كرسيا اخر الى جانب الوجاق فجلس عليه شوڤلان، الذي لم يعد يتحكم بأعصابه، بمواجهة الباب، لقد مضى على ذهـاب ديغـا حوالي ربـع ساعـة. وقال احساس مرغريت لها ان شوڤلان بات ينتظر وصول مساعدة ليترك كل الخطط المتعلقة باللاجئين ويلقي القبض على هذا «الزهرة القرمزية» الوقح في الحال. قال بلاكني بمرح:

ـ قل لي يامسيو شوڤلان، بـالله عليك، هل صديقتك جميلة؟ جميلات هؤلاء الفرنسيات الصغيرات أحيانا ـ ها؟

وأضاف، وهو يمضي بلا مبالاة الى مائدة العَشاء:

ـ لكن لاحـاجـة بي الى السؤال. في أمـور الذوق. . الكنيسة لم تكن متخلفة. . . ها؟

لكن شوڤلان لم يكن يصغي. كانت كل حواسه مركزة على الباب الذي سيدخل منه ديغا في اية لحظة. كذلك تركزت افكار مرغريت على البـاب لان اذنيهـا التقطتا فجأة، وسط هدوء الليل، وقد اقدام كثيرة

تمشي بانتظام آخذة بالاقتراب .

كان ديغا وجنوده قادمين . ثلاث دقائق اخرى ويصلون! ثلاث دقائق وتقع الكارثة : ويسقط النسر الشجاع في برائن ابن عرس!

أوشكت ان تخرج وتصرخ، لكنها لم تجرؤ إنها، وهي تسمع الجنود يقتربون، راحت تنظر الى بيري وتراقب كل حركة من حركاته . كان واقفا بجابن المائدة التي تناثرت عليها اواني العشاء : صحون واقداح وملاعق واوعية ملح وفلفل . كان موليا ظهره لشوڤلان ويثرثر بطريقته البلهاء المصطنعة، لكنه اخرج من جيبه علبة سعوطه، وبحركة سريعة مفاجئة افرغ الفلفل فيها . بعدئذ التفت الى شوڤلان وضحك ببلاهة وسأله :

ـ إية؟ أكنت تكلمني ياسيدي؟

كان شوڤلان مشغولا بالاصغاء الى وقع الخطوات المقتربة فلم يلاحظ مافعله غريمه الماكر. ثم اذا به يتمالك نفسه محاولا التظاهر بأن الامر لا يعنيه، وقال في الحال :

ـ كلا أعني ـ ماذا كنت تقول ياسير بيري . . . ؟

فمضى بلاكني الى حيث يقف شوڤلان بجوار الوجاق وقال :

ـ كنت أقول ان اليهودي الذي شارع بيكاديللي باع لي نوعا من السعوط أفضل من اي وقت سابق . هل لك ان تشرفني يامسيو قسيس؟

وخطا الى جانب شوڤلان، بطريقته «المؤدبة» اللامبالية مقدما علبة سعوطه لعدوه اللدود .

لكن شوفلان الذي لا تفوت عليه الحيلة، كما قال لمرغريت مرة، لم تخـطر بباله حيلة كهذه . كان مشغولا : أذنه على صوت أقدام الجنود

القـادمـين وعينـه على البـاب التي سيدخـل منها ديغا ورجاله حالا. وساعدت على زيادة إطمئنانه الى النتائج غفلة هذا الانكليزي الوقح، فلم ينتبه قط الى الحيلة التي كانت تنتظره. فأخذ شمة كبيرة من السعوط.

لا يتصور حالة الانسان في مثل هذه اللحظة الا من أخذ شمة كبيرة من الفلفل!

شعر شوڤلان كأن رأسه انفجر! وراح يعطس العطسة تلو الاخرى حتى كاد ان يختنق. لقد أعماه الفلفل واطرشه وأخرسه بضع لحظات لم يتردد بلاكني خلالهـا من التقـاط قبعته واخراج بعض النقود من جيبه ووضعها على المائدة ثم الخروج من الغرفة بمنتهى الهدوء!

تأملت مرغريت اللوحة، فقد أثارت اهتمامها. بعدئذ انصرفت عنها الى الطاولة الثقيلة. كانت مغطاة بفيض من الاوراق، كلها محزومة ومرتبة بعناية، تبدو مثل كشوف حسابات وايصالات مصنفة بطريقة متقنة. ولم يخطر ببال مرغريت قط من قبل ـ ولم تعبأ، وأسفاه! بأن تستفسر كيف يستطيع السير بيري، وهو الغبي بنظر العالم كله، ان يدير الثروة الطائلة التي تركها له والده.

لقد ادهشتها وهي تدخل هذه الغرفة المرتبة، هذا الدليل الواضح على قابليات زوجها في مجال التجارة والاعمال، انها لم تستغرب ابداً، بل بالعكس، زادت قناعة بأن بلاهته المعروفة وأساليبه الخرقاء وأحاديثه السخيفة ليست مجرد قناع، وانما هي عملية مقصودة ومرسومة.

عجبت مرغريت ـ علام يلجأ الى كل هذا؟ لماذا يرغب، وهو الرجل الجاد الرزين، بالظهور امام الناس بصورة الرجل المتبطر الفارغ؟

ربما يريد بهذا اخفاء حبه لزوجة تحتقره... لكن غاية كهذه يمكن بلوغها بأقل تضحية من هذه حقاً، وبأقل عناء من المضي في تمثيل هذا الدور غير الطبيعي.



الفصل السادس والعشرون
(اليهودي)

جرت الاحداث الاخيرة في اقل من نصف دقيقة، حتى ان مرغريت لم تستطع ان تدرك مايدور، بينما كان ديغا وجنوده مايزالون على بعد مائتي ياردة من نزل (القط الرمادي).

وعندما أدركت اخيرا ماحدث غمر قلبها شعور هو مزيج من الفرح والعجب. ياللدقة وياللبراعة! كان شوفْلان ما يزال مغلوباً على أمره كمن تلقى كلمة قاسية. فلم يكن في تلك اللحظة يقدر على الرؤية او السماع أو الكلام، في الوقت الذي تسلل غريمه الماكر من بين اصابعه بمنتهى الهدوء!.

لقد ذهب بلاكني قاصداً اللاجئين في كوخ الاب بلانشار بلا ادنى شك. حيح ان شوفْلان كان مشلول الحركة في تلك اللحظة، وصحيح ان «الزهرة القرمزية» أفلت من قبضة ديغا ورجال في تلك اللحظة.

وصحيح ان «الـزهـرة القرمزية» أفلت من قبضة ديغا ورجاله في تلك اللحظة. لكن الطرق كلها مراقبة. كل مكان تُحت المراقبة وكل غريب مراقب. الى اي مدى يستطيع بلاكني التحرك والـذهـاب بملابسه الفخمة الانيقة بدون مراقبة؟

راحت تلوم نفسها بشدة لعدم نزولها اليه بسرعة وتحذيرة ومصارحته بحبها الذي قد يحتاجه الان. فهو لايمكن ان يكون عرف بالاوامر التي اصدرها شوﭬلان لاعتقاله، وربما حتى الان. . .

لكنها سمعت قهقهة السلاح في الخارج قريبا من الباب وصوت ديغا يصدر لرجاله أمر «قف!»، قبل ان تجد الوقت لتأمل هذه الافكار السوداء. .

التقط شوﭬلان انفاسه بعض الشيء وقلت حدة عطاسه قام واقفا بصعوبة واستطاع الوصول الى الباب حال ماسمع طرقات ديغا من الخارج.

فتح شوﭬلان الباب وقبل ان يتفوه مساعدة بكلمة، تمتم بصعوبة وهو يعطس:

ـ الغريب الطويل القامة ـ أسرع! هل رآه أحد منكم؟

فسأله ديغا باستغراب:

ـ أين، أيها المواطن؟

ـ هنا يارجل! خرج من هذه الباب! قبل اقل من خمس دقائق.

ـ لم نر شيئا ايها المواطن. القمر لم يرتفع بعدو. . . فقال شوﭬلان بغضب عاصف:

ـ أيها المواطن. . . أنا. . .

فقال شوﭬلان بنفاذ صبر:

ـ قمت بما أمرتك به. اعرف هذا، لكنك اضعت وقتا ثمينا لم يحدث ضرر كبير، لحسن الحظ، والا فمصيرك اسود، ايها المواطن ديغا.

اصفر وجه ديغا قليلا. فقد كان رئيسه مشحونا بالغضب والكراهية. قال متعلثما:

ـ الغريب الطويل، أيها المواطن...

ـ كان هنا قبل خمس دقائق، وتعشى على تلك المائدة. اللعنة على وقاحته! خشيت التعرض له بمفردي لاسباب واضحة. بروغار ايضا أحمق، وهذا الانكليزي اللعين يملك قوة ثور. وهكذا تسلل هاربا تحت سمعكم وبصركم!

ـ لا يمكنه الفرار والطرق مراقبة، ايها المواطن.

ـ ها؟

ـ الكابتن جوتلي ارسل اربعين رجلا لتعزيز الدوريات. عشرون منهم انتشروا على الشاطىء. اكد لي مرة اخرى ان المراقبة مستمرة طوال اليوم ولا يقدر اي شخص غريب على الوصول الى الشاطىء او الحصول على زورق في غفلة من الدوريات.

ـ هذا حسن. هل يعرف الرجال المطلوب منهم؟

ـ لديهم اوامر واضحة ايها المواطن. وانا تحدثت بنفسي الى الرجال الذين في طريقهم للقيام بالدوريات. سيراقبون ـ باقصى درجة ممكنة من السرية ـ اي غريب يشاهدونه، وخاصة اذا كان طويل القامة او حانيا ظهره لكي يخفي طوله.

قال شوفلان بلهفة :
ـ على ان لايعتقلوا هذا الشخص باية حال طبعا. هذا «الزهرة القرمزية» الوقح سيتوهم انه افلت من اصابعنا الضعيفة. فلنتركه يذهب الى كوخ الاب بلانشار. هناك نطوق المكان ونعتقله.
ـ الرجال يفهمون هذا ايها المواطن. كذلك لديهم اوامر بان يراقبون الغريب الطويل عن بعد، اذا شاهدوه، وان يبعثوا باحدهم الى هنا رأساً لاخبارك.

ـ هذا صحيح.
ـ عندي خبر اخر لك، ايها المواطن.
ـ ماهو؟
ـ الانكليزي الطويل تحدث طويلاً، قبل حوالي ثلاثة ارباع الساعة، مع يهودي يدعى (روبين) يسكن على بعد عشر خطوات من هنا.
فسأله شوفلان بلهفة :

ـ اي . . . وماذا بعد؟
ـ الحديث كان بشأن حصان وعربة حمولة اراد الانكليزي الطويل استئجارهما على ان يكونا بانتظاره في الحادية عشرة.
ـ لقد جاوزت الحادية عشرة، اين يسكن روبين هذا؟
ـ مسافة بضع دقائق على الاقدام من هنا.
ـ ارسل احد الرجال ليرى ان كان الغريب قد اخذ عربة روبين.
ـ حالا، ايها المواطن.

خرج ديغا ليأمر أحد الرجال بالذهاب. لم تفهم مرغريت كلمة واحدة مما دار بين شوفلان ومساعده. وكانت كل كلمة منهما مثل خنجر يغوص

في قلبها ويملأ نفسها بالخوف والقنوط.

لقد قطعت كل هذه المسافة، عامرة القلب بالامل والتصميم على مساعدة زوجها، وهاهي لم تفعل اي شيء حتى الان سوى النظر بعين دامعة وقلب يعصره الحزن، بينما تضيق خيوط الشبكة حول «الزهرة القرمزية» الجريء.

لم يعد الان يستطيع التحرك دون ان يلحظه الجنود ويطاردونه ويعتقلونه. فملأ الشعور بالعجز نفس مرغريت بخيبة امل مريرة. فقد تلاشى كل امل لديها بان تقدم بعض العون لزوجها ولم يبق لديها سوى امل واحد هو ان تشاركه مصيره، مهما يكن.

خيل اليها، لحظة، انها فقدت حتى فرصة رؤية الرجل الذي تحب ثانية. ومع ذلك قررت ان تراقب كل حركات العدو. وطاف في قلبها امل بانها اذا لم تترك شوفلان يغيب عن نظرها عملت بذلك على تغيير مصير بيري بشكل من الاشكال.

ترك ديغا شوفلان يذرع الغرفة ذهابا وايابا بعصبية، ولبث في الخارج ينتظر عودة الرجل الذي ارسله للبحث عن روبين. وهكذا مرت عدة دقائق، كان شوفلان خلالها فريسة القلق ونفاد الصبر. فهو لايثق بأحد: والحيلة الاخيرة التي احتال بها الزهرة القرمزية الجريء عليه جعلته فجأة يشك في النجاح مالم يشرف بنفسه على المراقبة وتوجيه عملية اعتقال الانكليزي الوقح.

بعد حوالي خمس دقائق عاد ديغا يتبعه يهودي كهل لابس قفطان باليا قذرا تكدست الدهون والاوساخ على الكتفين منه. وكان الشيب قد غزا شعره الاحمر الممشط على طريقة اليهود البولونيين، وتدلت

جدائـل ملفوفة منه على جانبي وجهة، فيما زاد ذقنه الوسخ من قباحة شكله. كان يمشي حاني الظهر بالطريقة المألوفة التي درج عليها ابناء طائفته منذ قرون للتعبير عن التذلل والتواضع، يوم كان التمييز الديني قائماً بين النـاس وراح يمشي وراء ديغـا، ساحبـاً قدميه على الارض بالطريقة التي ظلت مقترنة بالتاجر اليهودي الاوربي الى يومنا هذا.

أشار شوڤلان، الذي يحمل كره الفرنسي لهذا الطائفة المحتقرة، الى الرجل بعدم الاقتراب منه. كان الثلاثة واقفين تحت المصباح الزيتي بحيث أستطاعت مرغريت ان تراهم بوضوح. سأل شوڤلان:

ـ أهذا هو الرجل؟

فأجاب ديغا:

ـ لا مواطن. لم نستطع العثور على روبين. الظاهر انه ذهب بعربته مع الغريب. لكن يبدو ان هذا الرجل يعرف شيئاً يريد مقابلة بعض المال.

قال شوڤلان:

ـ ها!

وابتعد باشمئزاز عن هذه العينة الكريهة من البشر.

وقف اليهودي جانباً بمذلة وبما عرف عن ابناء جلدته من صبر، متكئاً عصا وقد القت قبعته العريضة الوسخة ظلاً قائماً على وجهه الكئيب، منتظراً ان يتفضل صاحب السعادة بتوجيه بعض الاسئلة اليه. قال له شوڤلان بلهجة قاطعة:

ـ المواطن يقول انك تعرف شيئا عن صديقي، الانكليزي الطويل الذي اتلهف لملاقاته. . .

وأضاف حين تقدم اليهودي نحوه مسرعاً بلهفة:

ـ سحقاً لك: ابتعد عني يا رجل!

أجاب اليهودي، الذي يتكلم بلكنة ابناء اوربا الشرقية:
- أجل يا صاحب الفخامة. انا وروبين غولدشتاين التقينا بالانكليزي الطويل في الطريق هذا المساء.
- هل تكلمتم معه؟
- هو كلمنـا يا صاحب الفخامة. أراد أن يعرف إن يستطيع استئجار حصان وعربة ليذهب بهما عن طريق سان مارتان الى مكان يريد الوصول إليه الليلة.
- ماذا قلت له؟
أجاب اليهودي بلهجة متألمة:
- أنا لم انطق بكلمة. لاوبين غولدشتاين، ذلك الخائن اللعين، اين الشيطان. . .
فقاطعه شوڤلان بخشونة:
- لا تطل الكلام (أو «بلالغو») يا رجل واحك لنا قصتك.
- سبقني الى الكلام يا صاحب الفخامة. كنت على وشك أن أعرض على الانكليزي الثـري عربتي وحصاني لتأخذه الى حيث يشاء، فسبقني روبـين وقال له ان عربته البالية وحصانه الهزيل سيكونان جاهزين في الساعة الحادية عشرة.
- وماذا فعل الانكليزي؟
- أصغى الى روبين غولد شتاين، يا صاحب الفخامة، ثم مد يده في جيبه واخرج حفنة من القطع الذهبية وعرضها على ابن ابليس قائلاً انها ستكون كلها من تصيبه اذا جهز العربية والحصان في الحادية عشرة.
- وطبعاً كان الحصان والعربة جاهزين.
- حسنا كانا جاهزين بصورة من الصور، اذا جاز التعبير، يا صاحب

الفخامة. حصان روبين الهزيل اعرج كالعادة. رفض التحرك اول الامر.

ثم اضاف، مع ضحكة حقودة:

ـ ولم ينهض الا بعد مدة وبعد ضرب شديد.

ـ ثم ذهبوا؟

ـ أجل، ذهبوا قبل خمس دقائق. أنا مشمئز من حماقة الرجل الغريب.. وفوق هذا انكليزي! كان المفروض أن ينتبه الى ان حصان روبين الهرم لا يقوى على جر عربة.

ـ اذا لم يكن لديه خيار

فاحتج اليهودي بنبرة عصبية خشنة:

ـ لا خيار يا صاحب الفخامة؟ الم اقل له عشر مرات ان حصاني وعربتي افضل واسرع من كيس العظام الذي استأجره من روبين! لكنه لم يصغ الي. روبين ثعلب كذاب وعنده طرق ماكرة. خدع الغريب. كان الافضل له إذا كان مستعجلا، أن يأخذ عربتي.

فسأله شوڤلان بطريقة قاطعة:

ـ وأنت عندك حصان وعربة أيضاً؟

ـ إي! عندي يا صاحب الفخامة واذا اردتم فخامتكم العربة...

ـ أتعرف بأي طريق ذهب صديقي في عربة روبين غولدشتاين؟

فرك اليهودي ذقنه الوسخ مفكراً، وراح قلب مرغريت يخفق بشدة حتى ليكاد ينفجر. فقد سمعت السؤال القاطع وتطلعّت بقلق الى اليهودي، لكنها لم تستطيع رؤية وجهه في ظل قبعته العريضة.

مرت فترة صمت طويلة كان شوڤلان خلالها ينظر الى القامة المنحنية التي أمامه بنفاد صبر. أخيراً مدّ اليهودي يده ببطء الى جيبه الصدري

الواسع واستخرج منه عدداً من القطع النقدية الفضية. نظر اليها مفكراً ثم قال بنبرة هادئة:

ـ أعطاني الغريب هذه، حين ذهب مع روبين، لأسكت عمّا يفعل.

هزّ شوڤلان كتفيه بنفاد صبر وسأله:

ـ كم هي؟

فأجاب اليهودي:

ـ عشرون فرنكاً ياصاحب الفخامة، وأنا رجل نزيه طوال حياتي. وأخرج شوڤلان، بدون كلام، بضع قطع من الذهب من جيبه وراح يهزها في راحة يده، ثم مدّ يده نحو اليهودي وسأله بهدوء:

ـ كم قطعة ذهبية في راحة يدي؟

لم يكن يريد إرهاب الرجل بالتأكيد، بل يريد كسبه الى جانبه خدمة لأغراضه، إذ خاطبه بلهجة ودّية رقيقة. صحيح أن الخوف من المقصلة وطرق التهديد المماثلة كفيلة بحلّ عقدة لسان اليهودي، لكن شوڤلان فضّل أن يشتري تعاون الرجل بالمال لا بالتهديد.

لمعت عينا اليهودي بنظرة طمع خاطفة وهو يرى الذهب في يد محدثّه وأجاب بخنوع:

ـ أقول: خمسة على الأقل ياصاحب الفخامة.

ـ أتراها كافية لحلّ عقدة لسانك النزيه؟

ـ ماذا يريد صاحب الفخامة أن يعرف؟

ـ إن كانت عربتك تستطيع أن تحملني الى حيث يمكن أن أجد صديقي الغريب الطويل الذي ذهب في عربة روبين غولد شتاين؟

ـ عربتي وحصاني حاضران لحمل سيادتكم متى شئتم.

ـ الى مكان يدعى «كوخ» الأب بلانشار»؟

فقال اليهودي متعجباً:
- كيف حزرتم سيادتكم؟
- أتعرف المكان؟
- أعرفه ياصاحب السيادة.
- أيّ طريق يؤدي اليه؟
- طريق سان مارتان ياصاحب السيادة، ثم مشياً على الاقدام من هناك الى صخور الشاطىء.
كرّر شوڤلان السؤال بخشونة:
- أتعرف الطريق؟
فأجاب اليهودي بهدوء:
- كل حجارة فيه، كل نتفة عشب يا صاحب السيادة.
لم يقل شوڤلان كلمة أخرى بل رمى القطع الذهبية الخمسة واحدة واحدة أمام اليهودي الذي ركع وراح يدبّ على يديه وركبتيه لالتقاطها. وتدحرجت إحدى القطع بعيداً لتختفي تحت خزانة الأواني فزحف اليها فيما وقف شوڤلان ينظر بهدوء الى اليهودي العجوز وهو يكافح بأصابعه وأظفاره يستخرجها من تحت الخزانة.
وعندما نهض اليهودي واقفاً بعناء شديد سأله شوڤلان:
- هل لك أن تسرع بتجهيز العربة؟
- جاهزة ياصاحب السيادة.
- أين؟
- أقل من عشرة أمتار من هنا. هل تتفضل فخامتكم بالاطلاع؟
- لاأريد أن أراها. الى أيّ مدىً يمكنك ان تحملني بالعربة؟
- حتى كوخ الأب بلانشار، ياصاحب السيادة، وأبعد ممايستطيع حصان

روبـين الهزيل أن يحمل صديقك. أنا واثق بأننا سنجد بعد أقل من فرسخـين روبـين المحتـال وعـربته وحصانه الهرم والغريب الطويل عاجزين عن الحركة في منتصف الطريق.

ـ كم تبعد أقرب قرية عنّا؟

ـ أقرب قرية على الطريق الذي سلكه الانكليزي هي (ميكلون)، مسافة فرسخين من هنا.

ـ يستطيع هناك الحصول على واسطة نقل أخرى إذا أراد الاستمرار بالسفر؟

ـ يستطيع... هذا إذا وصل الى هناك.

ـ أتقدر أنت على الوصول؟

فقال اليهودي ببساطة:

ـ هل تريد فخامتكم أن تجرّب؟

فقال شوڤلان بهدوء شديد:

ـ هذا ما أنوي القيام به. لكن تذكر ـ اذا خدعتني فسأجعل اثنين من جنـودي الأشداء يضربانك الى أن تفطس، لكن إذا وجدنا صديقي الانكليزي الطويل في الطريق أو في كوخ الأب بلانشار فلك مني عشر قطع ذهبية أخرى. فهل أنت موافق ؟

فرك اليهودي ذقنه مفكراً مرة أخرى وراح ينقل بصره بين النقود التي في يده وبـين وجـه محـدّثه الصارم ووجه ديغا وقف وراءه صامتاً طوال الوقت. وبعد سكوت قال بتصميم:

ـ موافق

فقال شوڤلان:

ـ اذن فاذهب وانتـظر في الخـارج. ولاتنس هذا الاتّفـاق والاّ نفـذت

ماهددّتك به وحق السماء.

فخرج اليهودي العجوز يجر قدميه كعادته بعدما انحنى لشوڤلان انحناءة طاعة وخنوع شديدين. بدا الارتياح واضحاً لدى شوڤلان فقد فرك يديه وأشار بيديه إشارته المعروفة الدالة على رضا خبيث. قال لديغا أخيراً:

ـ ناولني معطفي وجزمتي.

مضى ديغا واعطى الأوامر اللازمة وما هي الاّ لحظات حتى دخل أحد الجنود حاملاً معطف شوڤلان وجزمته وقبعته. فخلع رداء القسس وإذا به لابس سراويل وصداراً وبدأ يغيّر ملابسه. قال لديغا:

ـ تعود أنت أيها المواطن الى الكابتن جوتلي بأسرع ما يمكن وتطلب منه فصيلاً آخر من الجنود تعود بهم الى طريق سان مارتان، حيث ستلحق سريعا ـ في اعتقادي بعربة اليهودي التي تحملني. ينتظرنا عمل كثير في كوخ الأب بلانشار ـ إذا لم أخطىء. هناك نحاصر طريدتنا من كل الجهات. تذكّر أن هذا «الزهرة القرمزية» الوقح معروف بخططه الاصلية ـ من باب الجرأة أو الغباء. لاأدري! لقد ذهب لملاقاة دوتورناي وسان جيست والخونة الاخرين، الذين ظننت أول الأمر أنه لن يذهب اليهم الآن. عندما نعثر عليهم سنواجه مقاومة مجموعة من الناس اليائسين. أتوقع أن يصيبوا بعض رجالنا. هؤلاء الملكيّون يجيدون المبارزة والانكليزي شيطان ماكر ويبدو هائل القوة. مع ذلك سنكون اكثر منهم بنسبة خمسة الى واحد على الأقل. يمكنك اللّحاق بالعربة مع رجالك عن كثب طول طريق سان مارتان الى قرية ميكلون. الانكليزي سبقنا ولاأظنه سيقف لينتظرنا.

أكمل تغيير ثيابه وهو يعطي هذه الاوامر القاطعة المركّزة. لقد رمى ثياب

القسيس جانبا وعاد ثانية الى بذلته السوداء السابغة الضيقة. ثم التقط القبعة آخر الأمر. قال مقهقهاً:

ـ عندي سجين مهم أريد أن أيلّمه لك.

وأضاف، وهو يتأبط ذراع ديغا في عودّة غير مألوف منها:

ـ لن نقتله رأساً، أليس كذلك أيها الصديق ديغا؟ كوخ الأب بلانشار ـ أنا واثق ـ مكان منعزل على الشاطىء وسوف يتمتع رجالنا قليلاً بمطاردة ثعلب جريح. إختر رجالك جيداً ياصديقي ديغا... أريدهم من النوع الـذي يحب هذا النمط من الرياضة ـ ها؟ يجب ان نجعل «الزهرة القرمزية» ينهار قليلاً... ماذا؟ ينكمش ويرتجف خوفاً... ها؟... قبل أن نقضي...

وأشـار إشـارة ذات دلالـة وضحك ضحكة شريرة خافتة ملئت قلب مرغريت برعب قاتل.

قال مرة أخرى وهو يأخذ بذراع مساعده ويغادران الغرفة:

ـ إختر رجالك جيداً، أيها المواطن ديغا.





الفصل السابع والعشرون
(المطاردة)

لم تتهاهل مرغريت بلانكي ثانية واحدة. تلاشى آخر الاصوات خارج نزل (القط الرمادي) في طيات الظلام. فقد سمعت ديغا يصدر الأوامر لرجاله، ثم ينطلق الى الحامية للمجيىء بتعزيزات إضافية: فشوڤلان يعتقد أن ستة رجال لايكفون لاعتقال الانكليزي الماكر، الذي يتمتع بذكاء وحيلة أشدّ خطراً من بسالته وقوّته.

ثم سمعت بعد بضع دقائق صوت اليهودي المبحوح ثانية يستحث حصانه، ثم صرير عجلات وضجيج عربة حمولة عتيقة تجّر نفسها جراً على أرض وعرة.

كان كل شيء داخل النزل ساكناً. فقد توارى بروغار وزوجته تماما عن أنـظار شوڤلان المخيف، آملين أن ينساهما، أن يبقيا بعيدين قدر

الامكان، حتى أنّ مرغريت لم تعد تسمع شيئاً من سيل الشتائم التي كان يلقيانها من قبل.

أنتظرت لحظة أو اثنتين ثم انسلت نازلة من الدرج الخشبي المتأرجح، والتفت بعباءتها جيداً وتسللت خارجة من المنزل.

كانت ليلة شديدة الظلام بما يكفي لاخفاءها بعباءتها القاتمة عن العين. أرهفت السمع لصوت العربة وهي تتقدم على الطريق. وكانت تأمل، عن طريق الاحتماء بين الخنادق الممتدة على جانب الطريق، أن تبقى مختبئة عن عيون رجال ديغا ورجال الدوريات التي ماتزال تراقب المنطقة.

وهكذا عمدت الى هذه الطريقة وهي تقوم بالمرحلة الاخيرة من رحلتها المضنية مشيا على القدمين وحيدة في ظلمة الليل. ثلاثة فراسخ تقريبا حتى قرية ميكلون، وفرسخ آخر منها الى كوخ الأب بلانشار.

ولتكن هذه البقعة القاتلة ماتكون. لاتبالي حتى لو كان الطريق المؤدي الى الكوخ وعراً كل الوعورة.

لم يكن حصان اليهودي قادرا على الاسراع. ورغم انها كانت مرهقة الذهن والأعصاب، ادركت انها تستطيع اللحاق به على هذا الطريق غير المستوي، حيث كان الحيوان المسكين ـ المنهوك بسبب الجوع ـ يقف فترات طويلة ليرتاح. كان الطريق بعيدا بعض الشيء عن البحر وتحيط به من الجانبين أشواك وشجيرات شبه ذابلة وأغصانها شبه عارية من الأوراق تحركها ريح شمالية فتبدو وسط الظلمة مثل خصلات شعر شيطاني متيبس.

توارى القمر وراء الغيوم لحسن الحظ إذ راحت مرغريت تسير على

جانب الطريق محتمية بالاشواك والشجيرات بعيدا عن الأعين. كان كل ماحولها ساكن: فيما عدا هدير البحر يأتي من بعيد مثل أنين خافت طويل.

كان الهواء بارداً مشبعا بملوحة البحر، وراحت مرغريت تستنشقه بعمق وتلذّذ بعد تلك الفترة الطويلة من المكوث في المنزل الخرب كم كانت ستستمتع بهدوء هذه القبعة المنعزلة.. هدوء لايعكره الاّ صيحة نورَس حزينة تأتي من بعيد بين حين وآخر أو صرير عجلات العربة وهي تتقدم ببطء على الطريق. كانت ستحبّ الجو البارد الرائق ورحابة الطبيعة الهادئة في هذا المكان المنعزل من الشاطىء لولا مايفيض به قلبها من خوف شديد ومن حنين وشوق الى كائن بات عزيزا عليها بلاحدود.

انزلقت قدماها على حافة الطريق المعشبة. كانت ترى ان من الأسلم لها الابتعاد عن وسط الطريق، لكنها وجدت صعوبة في السير بانتظام على جانب الطريق الموحل. بل إنها رأت من الأفضل ان تترك بينها وبين العربة مسافة غير قليلة. فكل شيء من حولها غير ساكن بحيث يمكن سماع صرير العجلات من بعيد والاسترشاد به.

عزلة شاملة. بعض أنوار في مدينة كاليه تلوح من بعيد وراءها.

والطريق خال من ايّ أثر للمساكن، حتى ولاكوخ صياد او حطاب. الى يمينها تبدو من بعيد حافة صخرية عالية يمتد تحتها شاطىء صخحري وعر تضرب به امواج المد فيصدر عنها هدير مستمر خافت. وأمامها عربة تسير مترنحة حاملةً عدواً حقوداً الى النصر.

سألت مرغريت نفسها أين يمكن ان يكون بيري من هذا الشاطىء المقفر في هذه اللحظة غير بعيد بالتأكيد، لانه لم يسبق شوڤلان بأكثر من

ربع ساعة. وتساءلت أتراه يدري ان هذه البقعة الساحلية الهادئة الرائقة من أرض فرنسا تقبع بالجواسيس، المتلهفين لرؤية قامته المديدة ومطاردته خلسة الى حيث ينتظره أصدقاؤه الغافلون ثم الانطباق عليهم واعتقالهم جميعاً.

كان شوفلان، في عربة اليهودي التي تميل به يمينا وشمالا مرتاح البال. وفرك يديه بارتياح شديد وهو يفكر بالفخ الذي نصبه والذي لاأقل لذلك الانكليزي الجريء المحيّر بالافلات منه ومع مرور الوقت وتقدم العربة على الطريق المظلم يقودها اليهودي العجوز، يقودها على مهل، زاد تلهف شوفلان لبلوغ الخاتمة الكبرى لهذه المطاردة المثيرة، باعتقال «الزهرة القرمزية» الغامض.

سيكون القبض على هذا المتآمر الوقح أجمل ورقة في إكليل غار المواطن شوفلان. ولن تنفع هذا الانكليزي شفاعة ووساطة من بلده حين يلقى القبض عليه متلبساً. بجريمة مساعدة وتهريب الخونة المتآمرين على الجمهورية الفرنسية. ثم ان شوفلان اتخذ كل الاحتياطات وعقد العزم على احباط اي تدخل لانقاذ الانكليزي.

لم يخالج قلبه شيء من تأنيب ضمير وهو يسلط هذا العذاب الاليم على زوجة سيئة الحظ دفعتها حماقتها الى الوشاية بزوجها. والواقع أن شوفلان لم يعد يفكر بها. كانت أداة مفيدة استخدامها لخدمة اغراضه. هذا كل ما في الامر.

لم يكن حصان اليهودي الهزيل يقدر على السير. راح يجرّ قوائمه جرا فكان على سائق العربة أن يتوقف باستمرار ليعطي حصانه الهرم شيئاً من الراحة. وكان شوفلان يسأله بين الحين والحين:

ـ هل لازلنا بعيدين عن ميكلون؟

فيأتيه نفس الجواب الذليل:

ـ ليست بعيدة ياصاحب السيادة.

ويعلق شوڤلان بسخرية:

ـ لم نر حتى الان صاحبك وصديقي عاجزين عن الحركة في منتصف الطريق!

فرد عليه ابن موسى:

ـ صبرك ياصاحب الفخامة النبيل. انهما امامنا. استطيع ان ارى اثار العربة التي يقودها ذلك الخائن وابن العمالقة!

ـ أمتأكد أنت أن هذا هو الطريق؟

ـ متأكد كتأكدي من وجود القطع الذهبية العشرة في جيب فخامتكم، ولي ثقة بأنها ستكون من نصيبي.

ـ ستكون من نصيبك حال ما أصافح صديقي الغريب الطويل.

وفجأة قال اليهودي:

ـ إصغِ! ماهذا؟

كان صوت حوافر جياد تخبّ في الوحل يسمع من بعيد وسط السكون الشامل. أضاف بصوت هامس خائف:

ـ انهم جنود.

قال شوڤلان:

ـ قف لحظة. أريد أن اسمع.

مرغريت أيضا سمعت اصوات اقتراب الجنود متجهين نحو العربة ونحوها. تملكها الخوف بعض الوقت ظناً منها أنّ ديغا وجنوده سيلقون القبض عليها. لكن الجنود كانوا قادمين من الجهة المقابلة، من قرية ميكلون كما يبدو. كانت متسترة بالظلام. شعرت بأن العربة توقفت، فتسللت مقتربة منها بأقصى درجة من الحذر والهدوء.

كان قلبها يخفق بشدة وكل أطرافها ترتجف. خمنت مايحمله هؤلاء الجنود من أخبار: «يجب مراقبة كل غريب يرونه على هذه الطرق أو على

الشاطىء، وخاصة اذا كان طويل القامة أو يحني ظهره لاخفاء طوله. وعند مشاهدته يجب ارسال أحد الجنود على حصان في الحال لابلاغ شوڤلان بذلك». أتراهم شاهدوا الغريب الطويل وجاء الرسول ليبلغ شوڤلان بالنبأ العظيم، هل وقع الأرنب الطريد في الفخ أخيراً؟

حين أدركت مرغريت أن العربة توقفت، اقتربت منها أكثر من ذي قبل، معتمدة على الظلام. زحفت الى أقرب نقطة آمله أن تستطيع سماع ماسيقوله الرسول. سمعت صوتاً يردد كلمة السر (أو «سر الليل»): حرية، أخاء، مساواة! فيسأله شوڤلان بسرعة:

ـ ما الأخبار؟

توقف اثنان بفرسيهما عند العربة. فاستطاعت مرغريت أن ترى شبحيهما ازاء ظلمة منتصف الليل، وأن تسمع صوتهما وشخير الحصانين كما سمعت من خلفها وقع اقدام في مشية منتظمة لفصيل من الجنود: ديغا وجنوده قادمين.

سادت فترة صمت لاشك أن شوڤلان عرف جنود الدورية خلالها بشخصيته. إذ أعقبها في الحال سيل من الاسئلة والأجوبة السريعة. سأل شوڤلان بتلهّف:

ـ رأيتم الغريب؟

ـ كلا، أيّها المواطن، لم نرَ غريبا طويل القامة. جئنا من ناحية الحافة الصخرية.

ـ ثم؟

ـ على بعد أقل من ربع فرسخ عن ميكلون شاهدنا هيكلاً خشبياً بائساً يبدو مثل كوخ صياد سمك يحفظ فيه شباكه وأدواته. كان يبدو خاليا حين شاهدناه أول مرة. لم نشكّ به أول الأمر الى أن لاحظنا بعض الدخان يخرج من فتحة بجانب الكوخ. ترجلت عن حصاني وزحفت الى جوار الكوخ. كان في تلك اللحظة خالياً، لكن نار فحم كانت

موقدة في أحد الأركان وكان هناك كرسّيان أيضاً. تشاورت مع رفاقي في الأمر وقررنا ان يختبئوا مع جيادهم بعيداً عن الانظار وأبقى أنا أراقب. وقد فعلت.

ـ طيّب! وهل رأيت شيئاً؟

ـ بعد حوالي نصف ساعة سمعت اصواتاً، أيها المواطن، وسرعان ما جاء رجلان الى حافة الصخور. قدرت انهما قادمان من طريق ليل احدهم شاب والاخر عجوز. كانا يتحدثان همسا فلم استطع سماع ما يقولان.

أحدهما شاب والاخر عجوز. عصر الخوف قلب مرغريت وهي تسمع اقوال الجندي: اي الشاب ارمان؟ شقيقها؟ والعجوز هو الكونت دوتورناري؟ هل هما اللاجئان اللذان يلعبان ـ بدون علم ـ دور الطعم لاجتذاب المنقذ الشجاع النبيل؟

تابع الجندي كلامه؛ وخيل لمرغريت انها سمعت قهقهة شوفلان المنتصرة:

ـ دخل الاثنان الكوخ حالا وزحفت الى موضع قريب منهما.

الكوخ مبني بطريقة بائسة فاستطعت التقاط بعض الكلمات.

ـ نعم ـ عجل! ماذا سمعت؟

ـ سأل العجوز الشاب ان كان ذلك هو المكان الصحيح فأجاب:

ـ نعم، هو المكان بعينه.

وأضاف، وهو يري الرجل، على ضوء نار الفحم، ورقة:

ـ هذه هي الخطة التي زودني بها قبل ان اغادر لندن. علينا التقيد بالخطة بشدة الا اذا تلقيت اوامر اخرى ولم اتلق اي اوامر غيرها، هذا هو الطريق الذي سلكناه.. لاحظ.. هنا المفترق... من هنا عبرنا الطريق سان مارتان... وهذا هو الممشى الترابي الذي قطعناه مشيا قال الرسول:

ـ قد اكون احدثت صوتا لان الشاب خرج الى باب الكوخ واطل برأسه متلفتا بقلق. وعندما عاد الى صاحبه راحا يتاهمسان فلم اعد اسمع شيئاً.

سأله شوڤلان بنفاد صبر:

ـ طيب؟.. و؟

ـ كنا ستة نراقب ذلك الجزء من الشاطىء. لذا تشاورنا ووجدنا أن ما نفعله هو أن يبقى أربعة منا يراقبون الكوخ ونأتي انا ورفيقي الى هنا حالا للابلاغ عما شاهدناه.

ـ لم تروا اثرا للغريب الطويل؟

ـ أبداً، أيها المواطن.

ـ ماذا سيفعل رفاقك اذا شاهدوه؟

ـ لا يتركونه يغيب عن أنظارهم لحظة. واذا حاول الهرب أو رأوا زورقا يقترب من الشاطىء فيبادرون لتطويق الرجل أو يطلقون النار اذا دعت الضرورة. واطلاق النار سينبه بقية افراد الدورية فغمغم شوڤلان بوحشية:

ـ هكذا! لكني لا أريد الغريب ـ ليس الان. إنما... الحق انكم قمتم بالواجب. يبدو أن الاوان لم يفت بعد...

ـ قابلنا قبل قليل ستة رجال كانوا يراقبون هذا الطريق منذ عدة ساعات.

ـ طيبّ؟

ـ لم يشاهدوا أيّ غريب.

ـ نعم، سبقنا الى مكان ما في عربة او غير ذلك. اللعنة! يجب أن لا نضيع ثانية واحدة. كم يبعد الكوخ من هنا؟

ـ حوالي فرسخين، أيها المواطن.

ـ هل يمكنك العثور عليه ثانية؟ حالاً؟ بلا تردد؟

ـ أنا متأكد تمام التأكد أيها المواطن.

ـ المشي يؤدي الى الحافة الصخرية؟ حتى في الظلام؟
فقال الجندي بثقة:
ـ الليلة ليست مظلمة أيها المواطن. وأقدر على معرفة طريقي.
ـ إذن هيّا بنـا. قلْ لزميلك يعود بالحصانين الى كاليه. لن تحتاج الى حصان. إبقِ بجانب العربة وأرشدْ اليهودي الى الطريق. ثم أوقفه على بعد ربع فرسخ من الممشى. اجعله يسلك أقصر الطرق.

وبينما كان شوڤلان يتكلم كان ديغا ورجاله يقتربون بسرعة حتى أن مرغريت صارت تسمع وقع أقدامهم على بعد مائة ياردة خلفها. فرأت أن بقاءها غير أمين وغير ضروري أيضاً بعدما سمعت ما فيه الكفاية. وفجـأة شعـرت كأنهـا فقدت حواسّها كلها، حتى الاحساس بالالم - فتخـدر قلبهـا واعصـابها ودماغها بعد كل تلك الساعات الطوال من الحزن والغم بلغت ذروتها بهذا اليأس المرير.

لم يبق الان خيط من أمل. فعلى بعد فرسخين من هذا المكان ينتظر اللاجئون مجيء المنقذ الشجاع. وهو في طريقه اليهم، على هذا الدرب نفسه وسوف ينضم اليهم في الحال. عندئذ يطبق الفخ عليهم. اربعة وعشرون رجلا، يقودهم واحد يحمل من الحقد المميت بقدر ما يملك من مكر خبيث، سيحكمون الطوق حول مجموعة اللاجئين وقائدهم الجريء. سيلقى القبض عليهم جميعاً. آرمان سيعاد اليها ـ كما وعد شوڤلان ـ لكن زوجها، بيرسي، الذي باتت تحبه وتعبده اكثر من اي وقت مضى، سيقع في يد عدو لا يعرف الرحمة، عدو لا يحمل ذرة شفقة لقلب شجاع او اعجابا بشجاعة نفس نبيلة، عدو لا يحمل غير البغضاء لغريمه الذكي الذي دوخه طويلاً.

سمعت الجنـدي يعـطي اليهـودي بعض التـوجيهـات المـوجزة، فانسحبت بسرعـــة الى جانب الـطريق وتكـورت مختفية وراء بعض الشجيرات في الوقت المناسب قبل وصول ديغا ورجاله.

تجمع الكل وراء العربة بلا ادنى ضجيج وبدأوا السير ببطء في الطريق المظلم. فانتظرت مرغريت الى أن ابتعدوا عن مدى السمع ثم انسلت بصمت وراءهم وسط الظلمة التي بدت فجأة أشد عتمة من السابق.



الفصل الثامن والعشرون

(كوخ الاب بلانشار)

تبعت مرغريت الجنود كأنها في حلم. الطوق يضيق أكثر فأكثر حول المحبوب. لم تعد لديها الان غاية سوى ان ترى زوجها ثانية وتقول له كم تعذبت، كم أخطأت في حقه وكم أساءت فهمه. لقد يأست تماما من انقاذه: فها هي تراه يحاصر من كل جانب. تساءلت في يأسها، وهي تحدق في الظلمة، ترى من أين سيأتي فجأة ليقع في الفخ الذي نصبه له عدوه اللدود!.

جعلها هدير الامواج البعيد ترتجف. وكان نعيب البوم أو صيحة نورس من حين لاخر يملأ قلبها برعب لايوصف. وفكرت بالوحوش الكاسرة، التي بهيئة بشر، تنتظر فرائسها لتمزقها بلا رحمة، مثل اي ذئب جائع، ولكن لابسبب الجوع بل لاشباع مافي نفوسها من حقد

وكراهية. لم تخف مرغريت من الظلام، بل كانت تخاف ذلك الرجل، الذي يجلس هناك داخل عربة حمل خشبية قاسية يفيض قلبه بالحقد والرغبة بالانتقام بما يجعل شياطين جهنم ترقص فرحاً.

تقرحت قدماها من المشي وصارت ركبتاها ترتجفان من فرط الارهاق انهـا تعيش في قلق وتوتر منذ أيام ولم تعرف طعم الراحة طوال ثلاث ليال. وهاهي منذ ساعتين تمشي في طريق موحل زلق، لكن عزيمتها لم تضعف (أو لم تلن) لحظة واحدة. لابد ان ترى زوجها وتخبره بكل شيء فأن غفر لها ذنبها الذي ارتكبته عن حماقة وجهل اعمى وجدت السعادة في الموت الى جانبه.

لابد انها كانت تمشي كمن في غيبوبة، تقودها الغريزة وتبعدها عن اعين الاعداء، حين قالت لها اذناها، اللتان صارتا تلتقطان اقل صوت بالغريزة ان العربة قد توقفت والجنود توقفوا ايضا. لقد وصلوا الى النقطة المطلوبة. لاشك ان الممشى قريب من هنا الى اليمين، ومنه الى الحافة الصخرية والكوخ.

زحفت غير عابئة بالاخطار، الى حيث وقف شوفلان يحيط به جيشه الصغـير: كان قد نزل من العربة وراح يصدر بعض الاوامر لرجاله. ارادت مرغريت ان تعرف هذه الاوامر - فان كانت قد بقيت لديها اية فرصة في مساعدة بيري فتلك هي في سماع كل كلمة تتعلق بخطط العدو.

يبـدو ان النقـطة التي وقفـوا عنـدهـا تبعـد حوالي ثمانمائة متر عن الشاطىء. فكان صوت الامواج يأتي خافتاً جداً كما لو أنه آت من بعيد. تحول شوفلان وديغا، ومن ورائهما الجنود، يميناً قاصدين الممشى الذي يؤدي الى الحـافـة الصخرية، في حين ظل اليهودي واقفاً على الطريق بعربته وحصانه الهزيل.

تحولت مرغريت هي الاخرى الى اليمين وراحت تزحف على يديها

وركبتيها بأقصى درجات الحذر. ولكي لاتحدث صوتا راحت تزحف على الاشواك والادغال الصغيرة غير مبالية بالالام، لايهمها سوى سماع مايقوله الاعداء دون أن يروها أو يسمعوها. كان الممشى محاطاً لحسن الحظ بسياج ـ كما هي العادة في هذه المنطقة من فرنسا ـ يطل على خندق جاف، ثبتت فيه أعشاب جافة، وجدت فيه مرغريت ملاذاً. هناك لايراها أحد ويمكنها الاقتراب الى بعد ثلاث ياردات عن شوڤلان الذي كان واقفاً يصدر الاوامر لرجاله.

سأل شوڤلان الجندي الذي كان يقود الحملة بصوت هامس قاطع:

ـ والان، أين كوخ الاب بلانشار؟

ـ على بعد ثمانمائة متر من هنا على امتداد الممشى، ومنتصف المسافة الى الحافة الصخرية.

ـ حسن جداً. ستقودنا أنت. قبل البدء بالهبوط من الحافة عليك أن تسبقنا زحفاً ومن دون ضجة الى الكوخ لتتأكد أن الملكيينّ الخونة مازالوا هناك. مفهوم؟.

ـ أجل، أيها المواطن.

ثم قال مخاطبا الجنود مجتمعين بلهجة امرة.

ـ أصغوا الي جيدا كلكم، الان، لاننا قد لانستطيع بعدئذ تبادل الكلام. فتذكروا اذن كل حرف اقوله، كأن حياتكم مرهونة بعدم النسيان.

ثم اضاف بلهجة جافة:

ـ وربما هي مرهونة بذلك.

فقال ديغا:

ـ نحن مصغون، ايها المواطن، ان جنود الجمهورية لاينسون الاوامر ابدا.

- أنت، الذي سيزحف الى الكوخ، حاول القاء نظرة الى داخل الكوخ. اذا رأيت هناك مع الخونة رجلاً انكليزياً طويل القامة، اطول من الاعتيادي، او حاني الظهر ليخفي طوله فاطلق صغيرا سريعا حادا اشارة لرفاقك.

وأضاف مخاطبا الجنود كلهم ثانية:

- عندئذ تهجمون كلكم فتطوقون الكوخ وتهجمون للداخل فتقبضون على كل من فيه قبل ان يتمكنوا من أستعمال اسلحتهم النارية. اذا قاوم اي منهم فاطلقوا النار على يديه او رجليه، ولكن حذار من قتل الرجل الطويل.. افهمتم؟

- أجل ايها المواطن.

- الرجل الطويل قوي اكثر من المعتاد. التغلب عليه يتطلب اربعة او خمسة منكم.

سكت برهة ثم تابع:

- فاذا وجدتم الخونة الملكيينّ وحدهم - وهذا احتمال كبير - فنهبوا رفاقكم المنتظرين هناك ثم ازحفوا جميعا واختبئوا وراء الصخور والاحراش المحيطة بالكوخ وانتظروا هناك دون ضجة الى ان يصل الانكليزي الطويل. وعندما يدخل الكوخ اهجموا. لكن لاتنسوا ان تعتصموا بالصمت، كالذئاب في الليل وهي تتسلل الى حظائر الاغنام. لااريد ان ينتبه اولئك الملكيون - اطلاقة من مسدس او صرخة او نداء استغاثة من جانبهم ربما تكفي لتحذير الشخص الطويل من المجيء الى الكوخ و... وأضاف مشددا على الكلمات.

- واجبكم هذه الليلة هو اعتقال الانكليزي الطويل!

- سننفذ اوامرك بحذافيرها، ايها المواطن.

- اذن فتقدموا بلا ضجيج وسوف اتبعكم.

بدأ الجنود الزحف بلا صوت كالاشباح واحدا تلو الاخر على الممشى

الصخري القاسي، بينما التفت ديغا الى شوڤلان يسأله :
ـ وماذا بشأن اليهودي، ايها المواطن؟
قال شوڤلان :
ـ آه، نعم! نسيت اليهودي . . .
ثم التفت اليه وناداه بلهجة آمرة :
ـ أنت، يا هذا . . . يا هارون، موسى، أبراهام . . . أيا كان اسمك . .
فأجاب الرجل العجوز، الذي كان واقفاً بهدوء بجانب حصانه الهزيل، بعيدا عن الجنود، بتواضع :
ـ بنيامين روزنباوم، اذا أحببت يا صاحب السيادة.
ـ لا احب سماع صوتك، لكني احب ان اوجه لك بعض الاوامر التي انصحك بأطاعتها.
ـ تفضل يا صاحب السيادة . . .
ـ امسك لسانك اللعين. ستبقى هنا، هل تسمعني؟ مع عربتك وحصانك الى أن نعود. لا تحدث اي صوت باي حال من الاحوال واكتم انفاسك. ولا تغادر مكانك لاي سبب من الاسباب حتى آمرك بذلك. فهمت؟
فاحتج اليهودي متوسلا :
ـ لكن، يا صاحب السيادة.
قال شوڤلان بلهجة جعلت العجوز المسكين يرتجف من رأسه الى قدمه :
ـ لا توجد مسألة «لكن» أو أي نقاش. اذا عدت ولم أجدك هنا فاقسم اني، أينما أختبأت، سأجدك وسيكون عقابي لك رهيباً لاخلاص لك منه. أتسمعني؟
ـ لكن، يا صاحب الفخامة . . .
ـ قلت: أتسمعني؟
تسلل الجنود وصاروا بعيدين ولبث الثلاثة واقفين مثل أطياف في الطريق المظلم المقفر، بينما كانت مرغريت مختبئة في الخندق القريب

تصغي الى أوامر شوڤلان كأنها تستمع لحكم اعدامها.
احتج اليهودي ثانية وهو يحاول الاقتراب من شوڤلان:
- سمعت ياصاحب السيادة. لكني أقسم لك بآبراهام واسحق ويعقوب اني سأطيع سيادتك طاعة مطلقة وأني لن أتحرك من هذا المكان حتى تتلطف سيادتك وتهل ثانية بطلعتك البهية على خادمك المتواضع. لكن تذكر يا صاحب السيادة اني عجوز مسكين، وأعصابي ليست قوية كأعصاب الجندي الشاب. اذا جاء قطاع طرق يبحثون عن صيد في هذا المكان المقفر فقد أصرخ أو أهرب من الخوف! فهل من الانصاف أن تزهقوا روحي، توقعوا عقاباً رهيباً على هذا العجوز المسكين بدون أذن؟

كان اليهودي في حالة يرثى له، يرتجف خوفا من قمة رأسه الى قدميه وكان واضحا أنه ليس من النوع الذي يترك وحده في هذا الدرب المقفر الموحش لقد قال الرجل الصدق. فقد يستولي عليه الخوف فيجعله يصرخ، بلا وعي منه، صرخة قد تكون بمثابة تحذير للشيطان الماكر «الزهرة القرمزية».
فكر شوڤلان لحظة، ثم سأل الرجل بخشونة:
- وتعتقد ان عربتك وحصانك سيكونان في مأمن وحدهما هنا؟ هنا تدخل ديغا قائلاً:
- اعتقد انهما سيكونان بمأمن وحدهما مما لو بقي معهما هذا اليهودي الجبان القذر، ايها المواطن. لاشك انه سيعدو هاربا أو يملأ الدنيا صراخا اذا خاف.
- لكن ماذا افعل بهذا الحيوان؟
- هل تعيده الى كاليه، ايها المواطن؟
فقال شوڤلان بلهجة مشؤومة:
- كلاّ. سنحتاج اليه للعودة بالجرحى بالعربة. وقف ساد صمت، كان

ديغا خلاله ينتظر قرار رئيسه، بينما وقف اليهودي العجوز يتلوى بجانب حصانه. قال شوڤلان اخيرا:

ـ حسنا، ايها الجبان العجوز الاخرق الكسول، عليك ان تلحق بنا. خذ يامواطن ديغا. . شد هذا المنديل بقوة حول فم الرجل.

وناوله شوڤلان وشاحاً، فراح ديغا يلفه بهدوء حول فم اليهودي. واستسلم بنيامين روزنباوم لهذه العملية مفضلاً هذا الاذى، بالتأكيد، على تركه وحيداً في طريق سان مارتان المظلم، وانطلق الثلاثة. وقال شوڤلان بنفاذ صبر:

ـ أسرعا! لقد أضعنا وقتا ثميناً.

وسرعان ماتلاشى وقع خطوات شوڤلان وديغا القوية الثابتة وصوت خطوات اليهودي العجوز وهو يجر قدميه جرا.

لم تفت مرغريت كلمة واحدة من أوامر شوڤلان. انصب تفكيرها اول الامر على استيعاب الحالة قبل ان تلجأ أخيراً الى ذكائها المعروف في أوربا عسى ان ينفعها الان.

صحيح أن الحالة ميئوس منها: حفنة من الاشخاص الغافلين ينتظرون بهدوء وصول منقذهم الغافل هو الاخر عن الفخ المنصوب لهم. وياله من فخ رهيب الذي نصب في قلب الليل وفي هذا المكان المقفر لبضعة اشخاص عزل. . نعم عزل لانهم غافلون عما يكيد العدو لهم. احد هؤلاء زوجها الذي تقدسه. وبينهم ايضا شقيقها الذي تحب. ساءلت نفسها: ترى من هم الاخرون الذين ينتظرون بهدوء مجيء الزهرة القرمزية، بينما يتربص بهم الموت وراء كل صخرة.

لم تكن تستطيع في تلك اللحظة ان تفعل شيئا سوى اللحاق بالجنود وشوڤلان. كانت تخاف ان تضل طريقها في الظلام والا لكانت تقدمت الى امام بسرعة صوب الكوخ الخشبي لتصل في الوقت المناسب وتحذر اللاجئين ومنقذهم الشجاع.

وخطـر في بالهـا، لحظـة، ان تطلق صرخات عالية كتحذير للزهرة القرمزية واصدقائه - وهذا ما يخشاه شوفلان - آملة ان يسمعوا صراخها ويجـدوا الـوقت الكـافي للهـرب قبـل فوات الاوان. غيـر انها لم تكن تعرف كم تبعد عن الحافة الصخرية وما اذا كانت صرخاتها ستصل الى اذان اللاجئين المساكين. واذن فقد تكون هذه المحاولة سابقة لاوانها وتضيـع عليهـا فرصة الصراخ في الوقت المناسب. فلو أنها صرخت الان لقيدوها وكمموا فمها كما فعلوا مع اليهودي ولاصبحت أسيرة بيد شوفلان لا حول ولا قوة.

تسللت بصمت خلف ذلـك السيـاج كالشبـح. كانت قد خلعت حذاءهـا وتمـزقت جواربهـا. ولم تكن تشعـر بأي ألم أو تعب بل كانت عازمـة على الـوصـول الى زوجها وذلك لان عدوها الماكر ومارسمه من مصيـر مظلم قتـلا في جسـدهـا كل احسـاس بالالم وجعلاها كتلة من الاحساس الغريزي الحاد.

فلم تكن تسمـع اوترى شيئـاً سوى وقـع الخطـوات العسكـريـة المنتظمة تتقدمها والكوخ الخشبي وزوجها يمشي غافلا الى حتفه.

وفجأة جعلهـا احسـاسهـا الغـريـزي تتـوقف عن مشيهـا السـريـع وتختبىء في ظل السياج. ذلك أن القمر، الذي خدمها بأن ظل مختفيا طوال الوقت وراء الغيوم، خرج بكل ما عليه من بهاء في ليلة من ليالي اوائل الخريف ينشر نوره الزاهي على المنطقة المقفرة الكئيبة.

هنـاك، على بعـد اقـل من مائتي متـر، تأتي الحافة الصخرية التي تمتـد الى الافق البعيـد لتقـابـل ساحـل انكلتـرا الحرة السعيدة يفصل بينهمـا بحـر هادىء رائق. وحـدقت مرغـريت بالمياه الفضية المتلألئة فرق قلبهـا الـذي حجـرتـه الساعات المؤلمة الماضية وامتلأت عيناها بالـدمـوع الحـارة. فهناك على بعد ثلاثة أميال تقف في الانتظار سفينة جميلة ذات اشرعة بيض.

خمنت مرغريت ان السفينة هي «حلم اليقظة»، يخت پيري المفضل، وعلى متنه القبطان العجوز (بريغز)، أمير الملاحين، وبحارته الذين جميعهم من الانكليز. وكأن أشرعته البيض المتلألئة في ضوء القمر تبعث برسالة فرح وأمل لمرغريت وان خشيت أن تكون وهما. انه ينتظر هناك في البحر، ينتظر سيده مثل طير ابيض يتهيأ للطيران. لكن سيده لن يصل اليه ابداً ولن يرى سطحه النظيف المصقول ولن يتطلع ابداً الى صخور شاطىء انكلترا البيض، بلد الحرية والامل.

ويبدو أن رؤية السفينة بثت في جسد المرأة المنهوكة المسكينة قوة يأس تفوق طاقة البشر. فهناك الحافة الصخرية ودونها على مسافة قريبة الكوخ حيث سيلاقي زوجها حتفه بعد قليل. لكن ها هو القمر قد ظهر وها هي تستطيع رؤية طريقها: يمكنها رؤية الكوخ من بعيد فتركض نحوه وتحرك من فيه، تنبههم بأي ثمن حتى يستعدوا للدفاع عن نفسهم بدل وقوعهم في ايدي الاعداء فريسة سهلة

تعثرت بالحشائش الكثيفة وراء السياج. لابد انها ركضت بأقصى سرعة داخل الخندق وخلفت شوفلان وديغا وراءها. اذ سرعان ما وصلت الى الحافة الصخرية وسمعت وقع اقدام الجنود خلفها، على بعد بضع ياردات. وكان القمر في تلك اللحظة في كامل اشراقه، يسكب نوره عليها، واذن فلابد ان طيفها يبدو واضحا بازاء مياه البحر

لحظات وعادت مرغريت الى الانكماش على نفسها مثل حيوان خائف. تطلعت من فوق الحافة الصخرية العالية الوعرة - فوجدت ان النزول سهل لان المنحدرات ليست حادة وفيها مواضع قدم جيدة. وبينما هي تحدق في الشاطىء تحتها انتبهت فجأة الى وجود مبنى خشبي صغير الى يسارها لا يبعد عنها كثيرا رأت من خلال جدرانه ضوء احمر ضعيفا يلمع مثل ضوء فنارات ارشاد السفن. اوشك قلبها ان

يكف عن الخفقان. فقد غمره الفرح حتى كاد ان يسكته!

لم تستطع تقدير المسافة الى الكوخ، الا انها بادرت الى النزول دون ابطاء، زاحفة من صخرة الى اخرى، غير عابئة بالعدو من ورائها ولا بالجنود المختبئين وراء الصخور بانتظار ظهور الرجل الانكليزي الطويل.

راحت تتقدم، ناسية العدو اللدود الذي يطاردها، تركض وتتعثر دامية القدمين ذاهلة الحواس لا تفكر بشيء سوى الاستمرار... حين وجدت قدمها تزل فوق سطح صخري املس وتهوي الى الارض بشدة. غير انها تحاملت على نفسها ونهضت لتركض ثانية حتى تحذرهم في الوقت المناسب وتتوسل اليهم ان يهربوا قبل مجيئه وتنصح زوجها بالبقاء بعيدا... بعيدا عن هذه النهاية المخيفة. الا انها سرعان ما ادركت ان اقداما اخرى، اسرع منها، لحقت بها. وفي اللحظة التالية سحبتها يد من تنورتها واذا بها تخر على ركبتيها ثانية، بينما التف شيء حول فمها ليمنعها من الصراخ

تطلعت حولها بيأس والحزن وخيبة الامل يسحقان قلبها فانتبهت الى ان هناك عينين حاقدتين قاسيتين قريبتين منها كل القرب تحدقان فيها من خلال الضباب المتكاثف. عينان صور لها عقلها المتعب ان ضوء اخضر شيطانيا ينبعث منهما.

انطرحت في ظل صخرة عالية. لم يستطع شوڤلان رؤية ملامحها لكنه حين مرر اصابعه البيضاء النحيلة على وجهها همس قائلاً:

ـ إمرأة! وحق جميع القديسين

ثم تمتم مع نفسه:

ـ لن نطلق سراحها.. أكيد... ترى من..!

توقف فجأة، وبعد بضع لحظات من الصمت القاتل، أطلق ضحكة خافتة قبيحة طويلة، شعرت مرغريت معها برعشة مخيفة اذ امتدت

الاصابع النحيفة الى وجهها تتفحصه ثانية. قال بدمائه مصطنعة:
ـ يا للعجب! يا للعجب! هذه مفاجأة جميلة حقاً.
وشعرت مرغريت. بيدها المتعبة ترفع لتقبلها شفتا شوڤلان النحيفتان الساخرتان.

كانت حالة غير معقولة بدرجة بشعة، ان لم تكن في الوقت نفسه مأساوية بشكل مخيف: المرأة المنهوكة المسكينة، المحطمة النفس التي تكاد ان تجن من شدة الخيبة تتلقى مجاملات رخيصة من عدوها اللدود.

أوشكت ان تفقد الوعي. فالكمامة المشدودة بقوة على فمها كادت ان تخنقها ومنعتها من اخراج ادنى صوت. وشعرت بحالة التحفز، التي كانت تمد جسدها الرقيق بالقوة، تفارقها حالاً وبشعور مرير باليأس يشل عقلها واعصابها تماما.

لابد ان شوڤلان قد اصدر بعض الاوامر، التي لم تستطع سماعها لفرط اعيائها. اذ شعرت بانهم يرفعونها عن الارض ويشدون الكمامة حول فمها بقوة اشد وبذراعين قويتين تحملانها صوب ذلك الضوء الاحمر الضعيف الذي رأت فيه مناراً يرشدها الى زوجها وبارقة صغيرة من الأمل.





الفصل التاسع والعشرون

(الوقوع في الفخ)

لا تدري كم بقيت محمولة، فقد فقدت كل احساس بالزمان والمكان ورحمت الطبيعة بحالها فجردتها من الوعي بضع ثوان.

وعندما استعادت وعيها وجدت نفسها تستريح على معطف رجل متكئة بظهرها الى بعض الصخور. كان القمر متواريا خلف السحب والظلمة شديدة بالمقارنة مع السابق. والبحر يهدر على بعد مائتي ياردة تقريبا. ولما تلفتت حولها لم تستطع ان ترى اي اثر للضوء الاحمر الضعيف

ادركت انها وصلت الى نهاية المطاف من سيل الاسئلة والاجوبة السريعة التي كانت تدور همسا بالقرب منها:

ـ يوجد اربعة رجال هنا، ايها المواطن، جالسون حول النار. يبدو انهم ينتظرون

ـ كم الساعة؟
ـ حوالي الثانية.
ـ والمد؟
ـ آخذ بالارتفاع بسرعة.
ـ السفينة؟
ـ واضح انها انكليزية. على بعد ثلاثة كيلو مترات عن الشاطىء لكننا لا نرى قارب النزول.
ـ هل اختبأ الرجال؟
ـ نعم، ايها المواطن.
ـ لن يحدثوا ضوضاء؟
ـ لن يتحركوا اقل حركة حتى يأتي الانكليزي الطويل، عندئذ يطوقون المكان ويقيدون الرجال الخمسة.
ـ جيد. والسيدة؟
ـ ما زالت غائبة عن الوعي كما أتصور. انها بجانبك ايها المواطن.
ـ واليهودي؟
ـ مكموم الفم. ورجلاه مشدودتان بحبل. لن يقدر على الحركة او الصراخ.
ـ جيد. اذن حضر مسدسك. فقد تحتاجه. اقترب من الكوخ ودعني اهتم بأمر السيدة.

اطاع ديغا فقد سمعته مرغريت يزحف على الحافة الصخرية مبتعدا ثم بيدين مخلبيتين نحيلتين دافئتين تقبضان على يديها قبضة فولاذية.
وهمسة شوفلان قرب اذنها:
ـ قبل ان نرفع الكمامة عن فمك الجميل، يا سيدتي الحسناء، ارى من الاصح ان احذرك. انا لا افهم ما الذي جعلني اتشرف بملاحقة سيدة

ساحرة مثلك لي عبر القنال، بالطبع، لكن هذا الاهتمام ليس المقصود به شخصي الضعيف، اذا لم اخطىء. وأظنني مصيب بتقديري ان اي صوت يصدر عن شفتيك الجميلتين بعد رفع هذه الكمامة القاسية يمكن ان يكـون تحذيرا للثعلب الماكر الذي تحملت انا الكثير من المتاعب للوصول الى مخبئه سكت لحظة، مشددا من ضغط مخالبه الفولاذية على رسغها، ثم تابع كلامه بنفس الهمس المخيف:
ـ داخـل ذلـك الكوخ، اذا لم اخطىء ثانية، ينتظر اخوك ارمان سان جيست وذلـك الخائن دو تورناي واثنان اخران، لا تعرفينهما، وصول المنقـذ الغـامض الـذي حير لجنـة السـلامة العامة طويلاً. . . الزهرة القـرمـزية الوقح. لا شك انك اذا صرخت او حصلت ضجة هنا او اطلاقات نارية فان نفس الساقين الطويلتين اللتين جاءتا بهذه العقدة القرمزية الى هنا يمكن ان تحملاهما بنفس السرعة الى مكان بعيد امين. وعنـدئذ تفشل المهمة التي قطعت كل هذه المسافات من أجلها. من ناحية اخرى انت يهمك فقط ان يسلم اخوك ـ ارمان ـ ويمكن ان اطلق سراحه واتركه يعود معك الليلة الى انكلترا او اي مكان امين اخر ترغبين.

لم تستطع مرغريت التفوه بكلمة بسبب المنديل المشدود على فمها بقوة. لكن شوفلان كان يحدق بوجهها من خلال الظلام. ولا شك ان يدها. . ارتعشت استجابة لاقتراحه لانه اسرع يقول:
ـ إنّ ما أريد منك أن تفعليه لضمان سلامة آرمان بسيط جداً ياسيدتي العزيزة.
سألته مرغريت بيدها:
ـ ما هو؟
ـ تبقين هنا ـ ولا تحدثين أيّ صوت حتى اسمح لك بالكلام.

للتعبير عن رفضها الامر:

ـ آه! لكن أعتقد بأنك ستطيعين. . اعلمي إذن أنّك إذا صرخت. . لا! إذا أحدثت أيّ صوت أو حاولت التحرك من هنا فإنّ رجالي ـ يوجد منهم حوالي الثلاثين من حولك ـ سيقبضون على سان جيست ودوتورناي والآخرين ويطلقون عليهم النار هنا، أمام عينيك، بأمر منّي.

أصغت مرغريت لحديث عدوّها اللدّود في رعب لايوصف. صحيح أن جسدها قد تخدّر من شدة الالم، الاّ أن عقلها مازال فيه شيء من الحيوية جعلها تدرك كم هو رهيب هذا الخيار الصعب الذي وضعه شوفلان امامها. إنّ هذا «إمّا. . أو» أصعب عشرة الآف مرة من ذاك الذي وضعه أمامها في ليلة الحفلة الراقصة المخيفة.

هذا الخيار الآن يعني تسكت وتترك زوجها الذي تعبده يمشي الى حتفه غافلا أو تحاول ايصال كلمة تحذير له، قد لاتنفع في شيء، بل تؤدي بالنتيجة الى قتل أخيها والثلاثة الآخرين الغافلين.

لم تكن ترى شوفلان في الظلام، لكنّها تكاد تحسّ بعينيه القاسيتين تنظران اليها بحقد وبكلماته الخافتة السريعة كأنها طعنة قاتلة لما بقي في نفسها من بقايا رجاء.

ثم أضاف بلهجة مهذّبة:

ـ لاياسيدتي الجميلة، لايمكن أن يهمّك أحد سوى أخيك سان جيست وكل ماأطلبه منك لضمان سلامته هو أن تلبثي حيث أنت وتلزمي الصمت. رجالي لديهم أوامر صارمة بعدم ايذائه بأي شكل.

أمّا بالنسبة للزهرة القرمزية الغامض. . ماذا يعني لك؟ صدقيني أن أيّ تحذير منك لايمكن أن ينفذه. . والآن دعيني، ياسيدتي العزيزة، أرفع هذه الكمّامة القبيحة التي وضعت على ثغرك الجميل. الا ترين اني اريد لك ان تختاري بحّرية تامة هذا التصرف أو ذاك.

جلست مرغريت في الظلام تعصف بها الافكار ورأسها يكاد ينفجر من شدة الصداع واعصابها مشاولة جسمها مخدرّ لم تكن تستطيع رؤية البحر من مكانها، لكنها كانت تسمع هدير أمواج المد الحزين الذي يحكي قصة أمالها القتيلة وحيها الضائع والزوج الذي غدرت به بيديها وارسلته الى حتفه.

ازاح شوفلان المنديل عن فمها. فإذا هي لم تصرخ فلأنّها لم تكن تملك قوّة للقيام بأي شيء سوى استعادة سيطرتها على نفسها على التفكير.

آه! تفكر! وتفكر! في مايجب عليها عمله! لدقائق تعدو - بل هي لاتقدّر وسط هذا السكون المشؤوم ان كان الوقت يمضي سريعا أو ببطء. فهي لاتسمع شيئاً ولاترى شيئاً.

ولاتشعر بهواء الخريف النديّ المعطّر برائحة ملوحة البحر. إذ لم تعد تسمع غمغمة الامواج ولاخشخشة حصى الشاطىء.

وصار الوضع كله يبدو لها غير واقعي أكثر فأكثر. من المستحيل ان تكون هي، مرغريت بلاكني، ملكة المجتمع الراقي في لندن، جالسة هنا في هذه البقعة المهجورة من الشاطىء في وسط الليل، وجنبا الى جنب مع عدوها اللدود. و. . . آه!

يمكن ان يكون قريبا منها، على بعد بضع مئات من الياردات ربّما، المخلوق الذي كانت تحتقرة في الماضي، والذي اصبح الآن، وسط هذا الجو الكابوسي الغريب، أحبّ الى قلبها من أي وقت مضى. لايمكن أن يكون حتى الآن غافلا عمّا ينتظره، وهي مغلوبة على أمرها لاتستطيع إنقاذه.

لماذا لم تطلق صرخات مجنونة يرّن صداها في أرجاء الشاطىء تحذّره وتدعوه الى التوقف وتحويل خطواته الى عكس الاتجّاه، مادام الموت

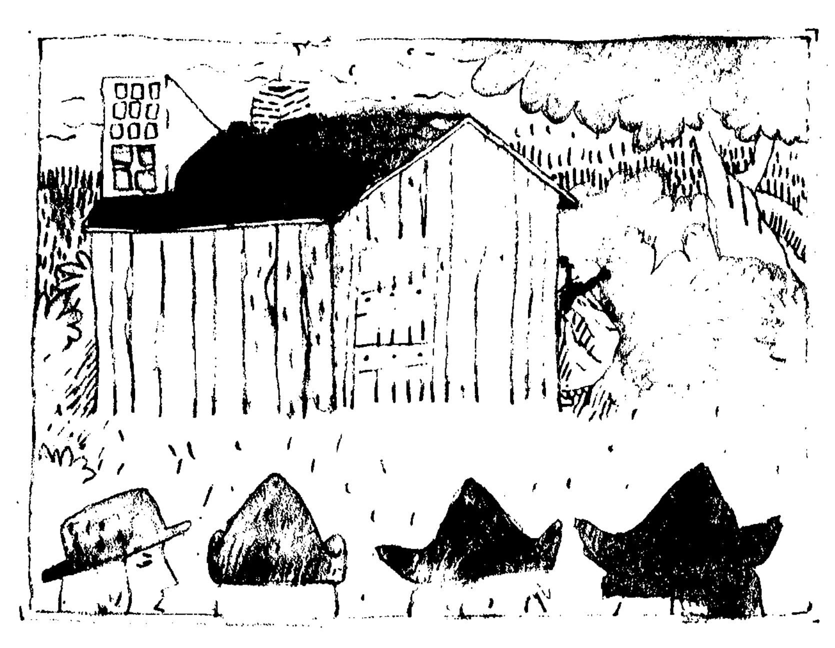
ينتظر مجيئة الى هنا؟ صعدت الصرخات الى حنجرتها اكثر من مرّة ـ بصورة غريزية، لكنّ سرعان مايتراءى لها البديل الفظيع: ترى أخاها والثلاثة الآخرين يعدمون بالرصاص أمام عينيها ـ بأمر منها في الواقع، لأنها هي التي تحكم عليهم بالموت.

آه! ذلك الشيطان بصورة انسان، الواقف بجانبها، يعرف الطبيعة الانسانية ـ الانثوية ـ معرفة جيدة. لقد لعب بمشاعرها كما يلعب الموسيقي البارع بأوتار آلة، مقدراً ماتفكر به تقديرا جيدا حقا.

لم تستطع ارسال اشارة التحذير تلك لأنها ضعيفة ولأنها إمراة. كيف يمكنها أن تجعلهم يعدمون آرمان أمام عينيها، أن تجعل دمه الغالي في رقبتها، أن تتركه يموت وهو يلعنها! وهذا والد الصغيرة سوزان أيضا! هو، الرجل العجوز! والآخرين! ـ آه! ماأقطع الأمر، ماأفظع الأمر!

انتظري! إنتظري! إنتظري! إلى متى؟ الساعات تمضي مسرعة باتجاه الفجر ومع ذلك لم يأت الفجر حتى الآن: البحر لاينقطع هديره الحزين ونسيم الخريف العذب يلطّف الليل.. والشاطىء المقفر ساكن صامت صمت القبور.

وفجأة انطلق من مكان ما، غير بعيد، صوت بهيج قوي ينشد: «فليحفظ الله الملك!».



الفصل الثلاثون

(السفينة)

توقف قلب مرغريت الموجوع عن الخفقان. فقد شعرت، أكثر ممّا ترى، بأن الجنود المختبئين يتهيأون لاطلاق النار. وقالت لها حواسها ان كل واحد منهم قد جرد سيفه وتهيأ للهجوم.

اقترب الصوت اكثر فأكثر. لكن ضخامة الصخور الجرداء وهدير البحر الاتي من الاسفل يجعلان من المستحيل تقدير المسافة أو معرفة الاتجاه الذي يأتي منه صوت الرجل الذي راح ينشد بابتهاج «يحفظ الله الملك» وهو ماض برجليه الى الموت. بدأ الصوت ضعيفاً، الا انه صار يزداد ارتفاعا ثانية بعد اخرى وصار يسمح بين الحين والحين صوت الحصى الصغار وهي تنزلق من تحت قدميه القوتين وتهوي من فوق الحافة الصخرية الى الشاطىء.

شعرت مرغريت، وهي تسمع، بروحها تخرج منها فكأن الصوت اقترب كثيراً ووقع المغني في الفخ. وسمعت بوضوح ديغا يسحب زناد مسدسه بجوارها. . . .

لا! لا! لا! لا! آه، يارب السماوات! هذا لا يمكن! إذن فليكن دم آرمان برقبتها! ولتحمل وزر (*) هذه الجريمة! بل ليحتقرها الذي تحب ويشمئز منها. ولكن، رباه! رباه! أنقذه بأي ثمن!

هبت على قدميها، مطلقة صرخة هائلة، وانطلقت كالسهم حول الصخرة التي كانت متكورة بجانبها. رأت بصيص الضوء الاحمر من شقوق جدار الكوخ الخشبي فركضت اليه والقت بنفسها على الجدار وراحت تدق عليه بقبضتي يديها بجنون وتصيح:

- آرمان! آرمان! أطلق النار بالله عليك! زعيمكم قريب من هنا! جاء! سيغدرون به! آرمان! أطلق النار! بحق السماء!

امتدت اليها أيدٍ جرتها وألقت بها ارضا. فانطرحت هناك تئن متوجعة من الجروح والخدوش، الا انها لم تعبأ بها، بل ظلت تبكي وتصرخ:

- بيري، زوجي، أهرب بالله عليك! آرمان! آرمان لم لا تطلق النار؟

قال شوفلان بصوت كالفحيح وهو يكاد ينهال عليها ضرباً:

- واحد منكم يسكت تلك المرأة.

فاذا بشيء يلقى على رأسها ووجهها فيكتم أنفاسها ويرغمها على السكوت.

كذلك سكت المغني الجريء. اذ لا شك ان صرخات مرغريت المجنونة حذرته مما ينتظره من أخطار. هبّ الرجال واقفين. لم تعد ثمّة حاجة الى الاختباء والتزام الصمت بعدما رددت الصخور المحيطة

(*) الوزر: الذنب أو المسؤولية.

أصداء صرخات المرأة الكسيرة القلب المسكينة.

تمتم شوڤلان بشتيمة لا تحمل في طياتها أيّ خير للمرأة التي جرأت على افساد أروع خططه وأسرع يصدر أمراً الى رجاله قائلاً:

ـ اقتحموا المكان يا رجال ولا تدعوا احداً يغادر الكوخ حيّاً!

عاد القمر يهل من بين السحب ـ فتلاشى الظلام من فوق الصخور تاركاً الضوء الفضي يتلألأ ثانية. هجم بعض الجنود على باب الكوخ لخشبي، بينما ظلّ واحد منهم يراقب مرغريت.

كان الباب مواربا (*) ففتحه أحد الجنود. كان الظلام يخيم على الكوخ في ما عدا بصيص نور أحمر خافت يصدر عن نار فحم في الركن البعيد من الكوخ. توقف الجنود عند الباب بحركة آلية كالمكائن، منتظرين أوامر أخرى.

عقدت الدهشة لسان شوڤلان أذ راى جنوده واقفين عند الباب كأنهم في نوبة حراسة، وهو يتوقع منهم هجوماً ضارياً الى الداخل ومقاومة عنيفة من الرجال الاربعة المعتصمين بالظلام. وكان الصمت مخيما على الكوخ.

استولى على شوڤلان توجس قلق غريب فذهب الى باب الكوخ هو الاخر، وعندما حدق في الظلام سأل بسرعة:

ـ ما معنى هذا؟

فأجاب أحد الجنود بلهجة قاطعة:

ـ لا أحد هناك الان كما اعتقد، أيها المواطن.

فقال شوڤلان مهددا بصوت كالرعد:

ـ تركتم أولئك الرجال الاربعة يهربون؟ امرتكم بعدم السماح لاحد بالخروج حيا! أسرعوا وراءهم، كلكم! اسرعوا: وراءهم في كل الاتجاهات!

(**) الباب الموارب: المفتوح قليلاً.

امتثل الجنود للامر واندفعوا يهبطون المنحدر الصخري صوب الشاطىء. متجهين يميناً وشمالاً بأقصى ما تستطيعه اقدامهم من سرعة قال شوفلان بضراوة مخاطباً العريف المسؤول:

- أنت ورجالك ستدفعون حياتكم ثمنا لهذا الاهمال، أيها المواطن العريف

والتفت نابحاً بوجه ديغا:

- وأنت أيضاً، أيها المواطن، لعدم اطاعتك أوامري. فقال العريف باكتئاب:

- أنت أمرتنا بالانتظار، أيها المواطن، الى ان يصل، الانكليزي الطويل وينضم الى الرجال الاربعة في الكوخ. لم يأت احد.

- لكني امرتكم الان، عندما صرخت المرأة، بالهجوم وعدم السماح لاحد بالهروب.

- لكن الرجال الاربعة الذين كانوا هنا، ايها المواطن، اعتقد انهم هربوا من قبل.

فقال شوفلان والغضب يكاد، يخنقه:

- أنت تعتقد! أنت؟ وتركتهم يهربون...

فاحتج العريف قائلا:

- أنت امرتنا بالانتظار، أيها المواطن، واطاعة اوامرك والا كان الموت عقابنا. فانتظرنا.

ثم اضاف وهو يرى شوفلان ما زال اخرس من شدة الغضب:

- سمعت الرجال يتسللون هاربين من الكوخ بعد قليل من اختبائنا وراء الصخور وقبل فترة غير قليلة من صراخ المرأة.

قال ديغا فجأة:

- اصغوا!

حمل الهواء صوت اطلاق نار متكرر من بعيد. وحاول شوڤلان التحديق في الشاطىء عله يرى شيئا، لكن القدر شاء ان يجعل القمر في تلك اللحظة يتوارى خلف السحب ثانية، فلم يستطع ان يرى شيئاً.

تمتم اخيرا:

- ليذهب احدكم ويشعل ضوء في الكوخ.

اطاع العريف ببلاهة. فذهب الى نار الفحم واشعل منها السراج الذي يعلقه بحزامه. فاذا بالكوخ خال تماما. سأل شوڤلان:

- في اي اتجاه ذهبوا؟

فأجاب العُريف:

- لا اعرف بالضبط، أيها المواطن. نزلوا الى الشاطىء اولا. ثم اختفوا وراء بعض الصخور العالية.

- صه! ما هذا؟

أصغى الثلاثة بانتباه. سمعوا من بعيد صدى صوت مجاذيف تضرب الماء بسرعة اخذة بالابتعاد، فأخرج شوڤلان منديله ليمسح العرق الذي راح ينز من جبهته، وقال بصوت مبحوح:

- قارب السفينة!

من الواضح ان آرمان سان جيست واصحابه الثلاثة نجحوا في التسلل من جانب الحافة الصخرية، وجنود الجيش الجمهوري المخلصون في اماكنهم ينتظرون قدوم الانكليزي الطويل لاعتقاله، تنفيذاً لاوامر شوڤلان وخوفا على حياتهم من تهديداته.

لا شك انهم وصلوا، واحدا اثر اخر، الى واحد من الخلجان الصغيرة المتناثرة على الساحل، حيث كان قارب اليخت «حلم اليقظة» بانتظارهم. ولابد انهم اصبحوا في مأمن الان على ظهر السفينة الانكليزية. واذا بقذيفة مدفع تنطلق في عرض البحر كأنها تأكيد لصحة هذا الافتراض. قال ديغا بهدوء:

ـ السفينة، أيها المواطن. إنها تقلع.

بذل شوڤلان جهدا جبارا للسيطرة على اعصابه وعدم الانفجار في نوبة غضب جنوني لاجدوى منها. مامن شك ان ذلك العقل الانكليزي اللعين قد غلبه تماما مرة اخرى. ولم يستطع شوفلان ان يتصور كيف استطاع الانكليزي الداهية الوصول الى الكوخ دون أن يراه أحد الجنود الثلاثين الذين يراقبون المكان. واضح أنه فعل ذلك قبل وصول الجنود الى الحافة الصخرية. لكن كيف استطاع المجيء بعربة روبين غولدشتاين من كاليه الى هنا دون ان ينتبه اليه احد من افراد الدوريات المنتشرة في الطريق؟ مسألة محيرة لايمكن تفسيرها! يبدو كأن ملائكة تحرس الزهرة القرمزية الجريء. وحين تطلع شوفلان الى الصخور العالية من حوله والى الشاطىء المقفر الممتد امامه سرت في بدنه رعشة خوف من القوى الغامضة المجهولة.

على أن الامر لاعلاقة له بالقوى الغامضة، بل هو واقع حصل في سنة الرب (أو السنة المباركة) ١٧٩٢ ولم تكن هناك جنيات ولا غيلان. لقد سمع شوفلان ورجاله ورجاله الثلاثون بآذانهم الصوت اللعين ينشد «ليحفظ الله الملك» بعد عشرين دقيقة بالتمام من محاصرتهم الكوخ، اي في نفس الوقت الذي وصل الرجال الاربعة فيه الخليج الصغير وصعدوا الى القارب. مع العلم أن أقرب خليج يبعد عن الكوخ اكثر من ميل.

أين ولّى ذلك المغني الجريء؟ لا يمكن أن يكون قطع تلك المسافة من الارض الصخرية الوعرة في دقيقتين الا اذا اعطاه الشيطان جناحين اذ لم تزد الفترة بين سماع النشيد وصدى اصوات المجاذيف على دقيقتين. اذن فلابد انه تخلف عن جماعته وهو مختبىء الان في مكان ما من الصخور. الدوريات ما زالت منتشرة. اذن سيشاهدونه بلا ريب. وتجدد الامل في نفس شوڤلان.

عاد الاثنـان من الجنـود الـذين طاردوا الـلاجئين وتسلق احدهما الصخـرة ببطء ليصـل الى حيث وقف شوڤلان لحظة انتعشت الامال مجددا في نفس الدبلوماسي الداهية. قال الجندي:

ـ وصلنـا بعد فوات الاوان، ايها المواطن. وصلنا الى الشاطىء لحظة توارى القمر وراء السحب. لا شك ان القارب كان في الانتظار عند الخليج الاول، على بعد ميل عنا. لكنه قد تحرك قبل مجيئنا وعندما بلغنا الشاطىء كان القارب قد ابتعد مسافة غير قليلة. اطلقنا عليهم النار، ولكن بلا جدوى. فقد كان القارب يمضي مسرعاً نحو السفينة. رأيناه بوضوح في ضوء القمر.

قال شوڤلان بنفاد صبر:

ـ نعم. تحرك قبل مجيئكم... قلت. وأقرب خليج يبعد ميلاً عنكم.

ـ أجل، أيها المواطن! قطعت المسافة ركضاً، الى الشاطىء مباشرة، مع اني قدرت ان القارب لابد ينتظر في مكان قريب من الخليج يصل اليه المد قبل غيره. لابد ان يكون القارب غادر الى البحر قبل أن تبدأ المرأة الصراخ. بضـع دقائق قبل صراخ المرأة! اذن فآمال شوڤلان لم تخب بعد. لعل الزهرة القرمزية ارسل اللاجئين الى القارب، لكنه لم يستطع اللحاق بهم. أذن فهو ما يزال على الشاطىء، وكل الطرق مراقبة. لم يضـع كل شيء حتى الان ولن يضيع ما دام البريطاني الوقح بعد في الاراضي الفرنسية.

قال بلهفة وهو يدخل الكوخ ثانية:

ـ هات الضوء هنا!

فجاء العريف بالسراج وراح الاثنان يتفحصان الكوخ الصغير. استطاع شوڤلان بنظرة خاطفة أن يلاحظ المحتويات: وعاء وضع تحت فتحة في جدار الكوخ، فيه بقايا جمر، كرسيان مقلوبان بسبب المغادرة السريعة المفـاجئـة ثم أدوات صياد السمـك وشبـاكـه ملقـاة في احدى الزوايا

وبجانبهما شيء ما صغير أبيض. قال شوڤلان للعريف، مشيراً الى القصاصة الصغيرة:

ـ التقطها وجئني بها.

كانت قصاصة ورق يبدو أن اللاجئين نسوها وهم يستعجلون الذهاب. بادر العريف، الذي اخافه غضب المواطن الشديد. يقدمها الى شوڤلان باحترام فقال له هذا آمراً:

ـ إقرأها، أيها العريف.

ـ لاتكاد تقرأ، أيها المواطن... خط غاية في الرداءة. فكرر شوفلان القول بوحشية:

ـ أمرتك أن تقرأها.

فشرع العريف يحلّ عقد الكلمات القليلة التي كتبت على عجل. مستعيناً بضوء السراج:

لا يمكنني الوصول اليكم دون تعريض حياتكم للخطر وتهديد عملية انقاذكم بالفشل. عندما تصلكم هذه الورقة انتظروا دقيقتين ثم تسللوا من الكوخ واحداً واحداً. انحرفوا الى اليسار تماماً وازحفوا بحذر نازلين من الحافة الصخرية. استمروا بالاتجاه الى اليسار الى ان تصلوا اول صخرة ترونها بارزة نحو البحر. وراءها تجدون القارب بانتظاركم. أرسلوا صفيراً حاداً طويلاً يأتيكم القارب. اصعدوا فيه وسيأخذكم رجالي الى السفينة ومن ثم الى انكلترا والسلامة. وعندما تصلون الى السفينة «حلم اليقظة» ارسلوا لي القارب. أخبروا رجالي بأني سأكون في الخليج المقابل لشاطىء «القط الرمادي» قرب كاليه. هم يعرفونه. سأكون هناك بأقرب فرصة ممكنة ـ عليهم الانتظار في أبعد نقطة ممكنة عن الساحل الى أن يسمعوا الاشارة الاعتيادية. لا تتأخروا ونفذوا هذه التعليمات بدقة أضاف العريف وهو يسلم الوريقة الى شوڤلان:

ـ ثم التوقيع، أيها المواطن.

الا ان هذا لم ينتظر ثانية واحدة. فقد التقطت اذناه عبارة واحدة من الرسالة المستعجلة: «سأكون في الخليج المقابل لشاطىء القط الرمادي قرب كاليه». ربما تعني هذه العبارة أن الفوز ما زال ممكنا.
صاح في رجاله الذين عادوا خائبين وتجمعوا ثانية حول الكوخ:
ـ من منكم يعرف هذا الساحل جيداً؟
قال أحدهم:
ـ أنا، أيها المواطن. أنا من أبناء كاليه وأعرف كل حجارة من هذه الصخور.
ـ هل هناك خليج صغير يقابل شاطىء «القط الرمادي»؟
ـ أجل، ايها المواطن. اعرفه جيدا.
ـ الانكليزي يريد الوصول الى ذلك الخليج. هولا يعرف كل حجارة من هذه الصخور. قد يسلك الطريق الاطول للوصول الى هناك. وهو، في كل الاحوال، سيمشي ببطء وحذر خوفا من دورياتي. ما زالت امامنا فرصة القبض عليه. جائزة ألف فرنك لكل من يصل الى ذلك الخليج قبل الانكليزي طويل الساقين.
قال الجندي:
ـ اعرف طريقا مختصرا من بين الصخور.
واطلق صيحة حماس واندفع راكضا فتبعه رفاقه عن كثب.

ما هي الا دقائق حتى تلاشى وقع اقدامهم. اصغى اليهم شوفلان برهة. ان الوعد بالجائزة اعطى لاقدام جنود الجمهورية أجنحة. وعادت الى وجهه علائم الكراهية والتشفي السابق لاوانه.

وقف الى جانبه ديغا صامتا كالتمثال ينتظر الاوامر، بينما وقف جنديان يحيطان بمرغريت المتكورة بجانب الكوخ. نظر شوفلان الى مساعده نظرة تفيض وحشية. لقد فشلت خطته المحكمة، والعواقب وخيمة. فقد ينجح الزهرة القرمزية في الهرب هذه المرة بسهولة اكبر

بكثير من السابق. وها هو شوفلان يحاول ان يصب نار الغضب غير المعقول، الذي ينتاب النفوس القرية احياناً، على رأس أحد.

كانت مرغريت مطروحة أرضاً تحت تهديد حراب الجنود، رغم ان المسكينة لم تكن تبدي اية مقاومة. لقد تغلبت الطبيعة على الارداة اخيرا واذا بالالم والارهاق يسحقانها فتسقط مغميا عليها: عيناها تحيط بهما دوائر زرقاء داكنة تحكي عن ليالٍ طويلة من القلق والسهر. وشعرها رطب متلبد حول جبينها، وشفتاها ملتويتان بحركة تنم عن الالم.

ان اذكى امرأة في اوربا، الليدي بلاكني ملكة الاناقة والترف التي سحرت مجتمع لندن بجمالها وذكائها وروعة ملابسها، هي الان صورة محزنة للانوثة المعذبة المسحوقة تستثير عطف كل انسان الا عدوها اللدود الذي يفيض قلبه حقدا وانتقاما. قال لجنوده بنبرة حقودة:

- لا فائدة من وضع حراسة على امرأة نصف ميتة، بينما سمحتم لخمسة رجال أحياء تماما بالهرب.

فامتثل الجنديان للامر ووقفا في وضعية استعداد.

- حاولوا ثانية العثور على الممشى وتلك العربة البالية التي تركناها في الطريق.

وفجأة لمعت في ذهنه فكرة:

- آه! بالمناسبة! أين اليهودي؟

فقال ديغا:

- قريبا من هنا، ايها المواطن. لقد كممت فمه وقيدت رجليه كما أمرت.

تناهى الى اذني شوفلان انين حزين غير بعيد فتبع مساعده الى الجانب الاخر من الكوخ، حيث وجد سليل اسرائيل السيىء الحظ مكموم الفم مقيدا الساقين مكوما مثل النفايات.

بدا وجهه في ضوء القمر الفضي قطعة من الرعب، عيناه مفتوحتان لا تكاد تجد فيهما اثرا للحياة وجسمه يرتجف كالمحموم. ويبدو ان الحبل الذي شد حول كتفيه وذراعيه في البداية. قد ارتخى فتدلى حول صدره وظهره، غير ان الرجل لم يكن منتبها لهذه الحقيقة، لانه لم يحاول قط ان يتحرك من البقعة التي رماه ديغا فيها ـ مثل دجاجة مذعورة تنظر بخوف الى خط مرسوم بالطباشير الابيض على طاولة او الى خيط يشل حركتها. امرهم شوڤلان قائلاً:

ـ اجلبوا الحيوان الجبان هنا.

كان يغلي حقدا. وبما انه لم يجد سببا معقولا ليصب غضبه على الجنود الذين اطاعوا اوامره طاعة عمياء، فقد رأى في ابن العنصر المحتقر هذا كبش الفداء الذي يبحث عنه. لم يقترب منه، بسبب من احتقاره الفرنسي الاصيل لليهود الذي دام قروناً وما زال في نفوس الفرنسيين حتى الان، بل قال بسخرية لاذعة جاء الجنديان بالعجوز التعس الى موضع منير:

ـ افترض الان انك، وانت اليهودي، تتذكر الاتفاق جيدا؟ وصاح به امرا حين راى شفتي اليهودي ترتجفان وتعجزان عن النطق:

ـ أجب!

ـ فأجاب المسكين متلعثما:

ـ أجل يا صاحب السيادة.

ـ إذن، تتذكر أننا عقدنا اتفاقا في كاليه، حين تعهدت باللحاق بصاحبك روبين غولدشتاين وحصانه الهزيل وصديقي الانكليزي الطويل؟ ها؟

ـ لـ... لـ... لكن... يا صاحب السيادة...

ـ قلت «بلا لكن».. تتذكر؟

ـ ز... ز... ز... نعم يا صاحب السيادة!

خيم صمت ثقيل. وراح الرجل التعس يتطلع الى ما حوله: الصخرة العملاقة، القمر، وجوه الجنود الجامدة كالصخر، حتى الى المرأة المسكينة الفاقدة الوعي الممددة بالقرب منه، ولم يقل شيئاً. فصرخ فيه شوفلان مهددا بصوت راعد:

ـ الا تتكلم؟

حاول المسكين، لكنه عجز عن الكلام. لا شك انه عارف ما ينتظره د الرجل العنيد الواقف امامه. قال مستعطفاً:

ـ يا صاحب السيادة....

قال شوفلان بتهكم:

ـ ما دام الخوف قد عقد (أو شلّ) لسانك فدعني انشط ذاكرتك. لقد اتفقنا على اننا اذا لحقنا بصديقي الغريب الطويل قبل وصوله الى هذا المكان اعطيتك عشر قطع ذهبية.

فأفلت من شفتي اليهودي الراعشتين أنين خافت. أضاف شوفلان مشددا على الكلمات:

ـ لكن اذا خدعتني نلت مني عقابا شديدا، عقابا يعلمك ان تتجنب الكذب.

ـ لم اخدعك يا صاحب السيادة. اقسم بابراهام...

ـ وبجميع احبار اليهود ادري.. كلهم في الاخرة لسوء الحظ، كما تقول شريعتكم، ولن يستطيعوا انقاذك من ورطتك الحالية. والان، انت لم تنفذ حصتك من الاتفاق. لكني مستعد لتنفيذ حصتي.

وأضاف ملتفتا الى الجنديين:

ـ اليكم هذا اليهودي البغيض أشبعوه ضرباً بالنطاق.

وعندما امتثل الجنديان للامر ونزعا نطاقيهما الجلديين السميكين اطلق اليهودي عواء مذعورا كفيلا بجلب كل احبار اليهود من الاخرة وغيرها لانقاذ حفيدهم من وحشية هذا الموظف الفرنسي.

قال شوفلان ضاحكاً بوحشية :
ـ اعتقد انني يمكن ان اعتمد عليكما، أيها المواطنون الجنديان، بضرب هذا الكذاب العجوز ضربا شديدا لم يذق مثله في حياته.
ثم اضاف بلهجة جافة :
ـ لكن لا تقتلاه.
فأجاب الجنديان بصورة قاطعة :
ـ سمعاً وطاعة، أيّها المواطن.
لم يلبث في مكانه ليتأكد من تنفيذ أمره ـ كان واثقاً من طاعة الجنديين اللذّين كانا متلهّفين الى القاء مسؤولية فشل العملية على طرف ثالث.
قال شوفلان لديغا :
ـ بعدما يتلقى ذلك الجبان التافه العقاب اللازم، دع الجنود يأخذونها الى العربة ويقودها احدهم الى كاليه. واضاف بخشونة :
ـ ليعتني اليهودي والمرأة بأحدهما الاخر الى ان نرسل اليهما احدا صباح غد. لا يمكنهما الهرب وهما بهذه الحال ولا داعي لان نشغل بالنا بهما

لم يفقد شوفلان كل أمل. فهو يدري ان جنوده سينطلقون للوصول بسرعة البرق طمعا في الجائزة. كما ان الزهرة القرمزية الاحمق الغريب الاطوار لا يتوقع ان يفلت ثانية وهو بمفرده يطارده ثلاثون جندياً.
لكن شوفلان لم يعد واثقا من نتائج حساباته كالسابق: لقد اربكته جرأة الرجل الانكليزي، ثم جاءت غباوة جنوده وتدخل المرأة لتجعل الخيوط التي كان يمسكها تفلت من يده كليا. لو ان مرغريت لم تشغله بعض الوقت، ولو ان الجنود كانوا يملكون ذرة من الذكاء، لو. . . قال «لو» الاخيرة في ما يشبه الحسرة. وقف ساكنا لحظة وراح يشتم مع نفسه ويصب عليهم لعناته. وكانت الطبيعة، والقمر الساطع الصامت الرقيق الشاعري، والهدوء والبحر الفضي تتحدث كلها عن الجمال والراحة. فلعن شوفلان الطبيعة ولعن الرجل والمرأة، بل ولعن كل

المتطفلين الانكليز المغامرين من أصحاب السيقان الطويلة.

أثلجت صرخات اليهودي المعذب قلب شوقلان الذي يفيض نقمة وكراهية، فابتسم. أحس بالارتياح لفكرة ان هناك واحدا اخر على الاقل ليس على وفاق مع البشر.

التفت ليلقي نظرة اخيرة على ذلك الركن من الساحل المقفر حيث جلس الكوخ الخشبي يسبح في ضوء القمر، المكان الذي شهد اكبر خيبة يواجهها واحد من كبار اعضاء (لجنة السلامة العامة).

كانت مرغريت بلاكني مطروحة على الصخر فاقدة الوعي، وعلى بعد خطوات منها كان اليهودي التعس يتلقى على ظهره العريض جلدات مؤلمة من نطاقين جلديين قاسيين بيد جنديين قويين من جنود الجمهورية. كانت صرخات بنيامين روزنباوم كافية لان تقيم الموتى من قبورهم. ولابد انها ايقظت كل طيور النورس (أو النوارس) من نومها وجعلتها تحلق فوق المكان تنظر باهتمام شديد الى حكمة سيد الكائنات.

لما تلاشت صرخات اليهودي وبدا المسكين مغميا عليه قال شوقلان:

- هذا يكفي. لا نريد قتله.

فاطاع الجنديان وشدا نطاقيهما، فيما ركل احدهما اليهودي على جانبه ركلة وحشية.

قال شوقلان:

- أتركاه هنا وأسرعا الان الى العربة. سأتبعكما.

مضى الى حيث انطرحت مرغريت ونظر الى وجهها الظاهر انها استعادت وعيها وبدأت تحاول ان تستجمع ما عندها من قوة لتجلس. وراحت عيناها الزرقاوان الواسعتان تحدقان في ما حولها، بنظرات خائفة مرعوبة، لتستقرا بنظرة هي مزيج من الرعب والشفقة على اليهودي

الذي كان خطه العاثر وصرخاته المتألمة المجنونة أول ما انتبهت اليه حين عادت الى وعيها. ثم وقع نظرها على شوفلان بملابسه السوداء الانيقة التي لم تفقد شيئاً من أناقتها بعد كل احداث الساعات القليلة الماضية. راح يبتسم بسخرية مريرة بينما كانت عيناه الشهلاوان الثعلبيتان تنظران اليها بحقد شديد. انحنى بطريقة مؤدبة هازئة ورفع يدها الباردة كالثلج الى شفتيه فجعلت هذه الحركة جسد مرغريت المنهوك كله يهتز اشمئزازاً. قال بلهجة غاية في الرقة:

- يؤسفني كثيرا، يا سيدتي الجميلة، ان تضطرني ظروف خارجة عن ارادتي، الى تركك هنا الان. لكني سأذهب وأنا متأكد من انني لن اتركك بلا حماية. صديقنا بنيامين هنا. صحيح انه لا يقوى على الحركة الان، الا انه سيكون نعم المدافع عن شخصك الكريم، ما من شك، سأبعث بمن يحرسك ويرافقك فجر الغد. حتى ذلك الحين أنا واثق كل الثقة بأنك ستجدين بنيامين هذا قائماً على خدمتك. ربما هو بطيء بعض الشيء!

لم تجد مرغريت عندها من القوة ما تفعل به شيئا سوى ان تدير وجهها عنه. كان الحزن المرير يسحق قلبها. فكرة مخيفة واحدة قفزت الى ذهنها لحظة استعادت وعيها.

- ماذا جرى بيري؟ ماذا حل بآرمان؟

لم تكن تدري ما حصل، بعد سماعها ذلك النشيد البهيج «ليحفظ الله الملك» التي رأت فيها إشارة الموت.

اختتم شوفلان كلامه بالقول:

- أنا نفسي مضطر الان الى تركك على غير رغبة مني. أورفوار سيدتي الجميلة. آمل ان نلتقي قريبا في لندن. هل سأراك في حفلة ولي العهد في الهواء الطلق؟ لا؟ - آه، حسنا، أورفوار! ذكري السير بيري بلاكني بي، أرجوك.

اختتم كلامه بابتسامة وانحناءة ساخرتين وقبل يدها مرة اخرى قبل ان يتوارى على الممشى المنحدر في اعقاب الجنديين يتبعه ديغا الهادىء الاعصاب.



الفصل الحادي والثلاثون
(الهروب)

أصغت مرغريت، شبه ذاهلة، الى وقع خطوات الرجال الاربعة تبتعد مسرعة. كان السكون شاملا حتى انها، وهي نائمة واذنها على الارض، ظلت تسمع وقع خطواتهم بوضوح حتى وصولهم الى الطريق الرئيس، ثم تناهى الى اذنيها صوت عجلات العربة العتيقة حوافر الحصان العجوز ضعيفا بما يدل على ان عدوها قد رحل. لم تدر كم لبثت مطروحة، فقد اضاعت حساب الوقت. وراحت تنظر بذهول الى القمر ينير السماء وتصغي الى هدير البحر الرتيب.

كانت رائحة البحر المنعشة كالبلسم الشافي لجسدها المنهوك وكانت الصخور العملاقة الجرداء تبدو خيالية. لكن عقلها ظل فريسة لعذاب الشكوك الذي لا يرحم.

لم تعرف!

لم تعـرف ان كان بيري لا يزال حتى هذه اللحظة في قبضة جنود الجمهــورية، متحمــلا ـ كما تحملت هي ـ استهـزاء عدوه الشرس وسخريته. وهي لا تعرف ايضاً ان كانت جثة ارمان ملقاة في الكوخ او ان بيري هرب ليكتشف ان زوجتـه هي التي جاءت بكـلاب الطراد البشرية لتقتل ارمان واصدقاءه.

كانت الامها الجسدية من الفظاعة ما جعلها تتمنى لو يظل بدنها المتعب مستلقيا هنـا الى الابـد ـ بعـد ما سحقته المخاوف و الاحزان والـدسـائس خلال الايام القليلة المـاضية ـ هنـا، تحت هذه السـماء الصافية، قريبا من صوت البحر، ونسيم الخريف الرطب العليل يهمس في اذنها الترنيمة(*) الاخيرة. كان كل شيء منعزلا، صامتا كأنه جزء من جو حلمي. حتى صوت العربة المبتعدة تلاشى منذ وقت غير قليل...

وفجـأة... ارتفـع صوت، اغرب صوت سمعته هذه البقعة من الساحل الفرنسي بالتأكيد، فكسر الصمت الجليل الذي يخيم على الشاطىء.

كان الصوت من الغرابة ما جعل النسيم العليل يكف عن الغمغمة والحصى الصغـيرة تتـدحـرج الى الشاطىء! كان من الغرابة ما جعل مرغـريت تعتقد، بعدما أخذ منها الحزن والاعياء، بان الغيبوبة التي تسبق الموت هي التي تلعب باحساسها بهذه الاوهام. كان صوتا يقول كلمة «اللعنة!» بلهجة انكليزية خالصة قوية.

النـوارس استيقظت في اعشاشها وراحت تنظر الى الارض باستغراب واطلقت بومة منعزلة نعيب منتصف الليل من بعيد

(*) الترنيمة: أغنية خافتة تغنى للطفل الرضيع حتى يغفو وينام.

لم تصـدق مرغـريت اذنيها. فتحاملت على يديها قدر ما تستطيع وارهفت كل حواسها لترى وتسمع، لتعرف معنى هذا الصوت النابض بالحياة.

ظل كل شيء ساكنـا بضع ثوان، عاد الصمت خلالها يخيم على المدى الفسيح المقفر. ولكن مرغريت، التي سمعت الصوت كأنها في غيبـوبة وخيل اليها انها تحلم، سمعت الصوت ثانية. وعندها خفق قلبها بشدة وراحت عيناها، المفتوحتان على سعتهما، تنظران من حولها، غير مصدقة حواسها، الاخرى.

ـ اللعنــة على هذه الحياة! كم كنت اتمنى لو ان هؤلاء المـلاعـين لم يضربوني بمثل هذه القسوة!

هذه المرة لا شك فيها. لا يوجد في العالم كله سوى شفتين اثنتين بريطانيتين اساسا تستطيعان التفوه بهذه الكلمات بهذه اللهجة الممطوطة الكسولة.

كرّرت نفس الشفتين البريطانيّتين القول بنبرة مشددة:

ـ اللعنة! أنا ضعيف كالفأر.

في اللحظة التالية هبت مرغريت واقفة.

أتحلم؟ هل هذه الصخور العملاقة الصلدة هي بوابة الجنّة؟ وهل عبير النسيم العذب يأتي من رفيف أجنحة الملائكة، فيملأ نفسها فرحاً بعد العذاب، أم أن هذا وهماً من أوهام الهذيان؟

أصغت مرة أخرى... ومرة أخرى سمعت نفس الصوت والكلمات الأنكليزية السليمة الطيّبة، ولا علاقة لها بهمس الجنّة أو رفيف أجنحة الملائكة.

تطلّعت من حولهـا بلهفـة الى الصخـور العـالية والكوخ المهجور والشاطىء الصخري الممتد الى الأفق. إنّه آت من مكان ما فوقها أو

دونها، وراء صخرة أو من باطن شق في الصخور، لكنه مايزال خافياً على عينيها المحمومتين المتلهفتين. إنّه هو، صاحب ذلك الصوت الذي كان يثير أعصابها في الماضي فأصبح الآن كفيلاً بجعلها أسعد امرأة في أوربا. ليتها تستطيع العثور عليه!

راحت تصرخ بهستيريا، ممزقة بين الشك والأمل:

- بيري! بيري! أنا هنا! تعال إليّ! أين أنت؟ بيري! بيري! . . .

فجاء نفس الصوت الممطوط الكسول يقول:

- حسناً فعلت أن ناديتني ياعزيزتي. لكن تبّاً للحياة. . . لا أقدر على المجيء اليك. أولئك الملاعين آكلو الضفادع أهلكوني ضرباً وأنا أضعف من الجرذ الآن. . . لا أقدر على التحرك من مكاني.

ومع ذلك لم تستطيع مرغريت أن تفهم. . واحتاجت الى عشر ثوان أخرى حتى تدرك من أين جاء الصوت، ممطوطاً بهذه الدرجة، حبيباً الى القلب بهذا القدر، لكن واحسرتاه، ! أيتعب هذا الصوت ويعاني الى هذا الحد؟ أمعنت النظر: لا أحد. . . الا بجانب الصخرة. . . رباه! . . . اليهودي! . . . أهي مجنونة أم تحلم؟

كان مولياً ظهره لضوء القمر الشاحب، شبه متكور. كان يتململ في مكانه محاولا عبثا النهوض على ذراعيه المقيدين بشدة. فأسرعت اليه مرغريت واخذت راسه بين يديها. . . وحدقت في الوجه فطالعها عينان زرقاوان ودودتان تشرقان من وراء قناع اليهودي الممسوخ الغريب.

هتفت وهي تشهق فرحاً:

- بيري! . . . زوجي! حمداً لله! حمداً لله!

فرد عليها بمرح:

- صبراً يا عزيزتي. . سنفعل هذا كلانا حالا و. . . تعتقدين ان بامكانك فك وثاقي وتحريري من ثيابي غير الانيقة هذه؟

لم تكن لديهـا سكـين وكانت اصابعها خدرة ضعيفة، فاستعانت بأسنانها، بينما راحت دموع الفرح تنهمر من عينيها على تلكما اليدين المقيدتين المسكينتين.
قال بعدما افلحت جهودها المجنونة في فك الحبال:
ـ تباً لهذه الحياة! لكني اتساءل هل حصل من قبل سمح رجل انكليزي لاجنبي لعين بأن يجلده ولم يحاول الرد بالمثل!
كان واضحا ان الارهاق الجسدي اخذ منه مأخذا، فما ان تراخت عنـه الحبـال حتى انهار على الصخرة مثل كومة من الحطام، فراحت مرغـريت تتلفت حولهـا حائـرة. ولما رأت انه يوشك على الاغماء ثانية صرخت بألم:
ـ آه! ما من قطرة ماء في هذا الشاطىء البغيض!
فغمغم مبتسما ابتسامة المرحة الودودة:
ـ لا يا عزيزتي. انا شخصياً افضل قطرة من البراندي الفرنسي الجيد، واذا مددت يدك في جيب هذا القفطان القذر فستجدين قارورتي. . . علي اللعنة ان كنت استطيع الحركة.
حين شرب قليلا من البراندي اجبر مرغريت على اخذ جرعة ، قائلا مع زفرة ارتياح:
ـ لا! هذا افضل الان! ايه، ايتها المرأة الصغيرة! تباً! ما اغرب ان تجد الليدي بلاكني زوجها البارون السير بيري بلاكني بمثل هذه الثياب!
واضاف وهو يتحسس ذقنه:
ـ بالله! انـا لم احلق لحيتي منـذ عشرين ساعة تقريبا. لابد ان منظري مقـزز. امـا بالنسبة لهذه الضفائر ورفع عن رأسه باروكة الشعر والضفائر القبيحـة ضاحكـاً وتمطى باسطـاً اطرافه الطويلة التي تخدرت من فرط الانحنـاء ساعـات كثيـرة. ثم مال نحو زوجته ونظر نظرة ثاقبة طويلة في

عينيها الزرقاوين:
همست، وقد تورد وجهها الرقيق بشدة:
- بيري لو تعرف..
فقال بمنتهى الرقة:
- اعرف يا عزيزتي... كل شيء.
- وهل يمكن ان تغفر لي ابدا؟
- ما من شيء اغفره يا حبيبتي. بطولتك، اخلاصك الذي، ويا للاسف!، لا استحقه انا، هو اكثر من تكفير عما بدر منك في الحفلة من خطأ.
همست:
- اذن كنت تعرف.... طول الوقت؟
أجاب برقة:
- أجل! كنت اعرف... طول الوقت. لكن، والله! لو كنت اعرف اي قلب نبيل تملكين، يا مارغوتي العزيزة، لكنت وثقت بك، لانك اهل للثقة، ولما عانيت انت ما عانيت من عذاب رهيب في الساعات القليلة الماضية وانت تركضين وراء زوج ارتكب الكثير مما يستوجب الغفران. جلسا جنبا الى جنب متكأين الى صخرة وأراح رأسه الموجوع على كتفها. انها تستحق الان فعلا لقب «اسعد امرأة في اوربا». قال بأبتسامته الطيبة الودودة الماضية:
- صرنا مثل الاعمى الذي يقود اعرج ياحبيبتي، أليس كذلك؟ تبا للحياة! لكني لا ادري ايا تأذى اكثر كتفي ام قدميك الصغيرتين. انحنى ليقبلهما اذ رآهما ظاهرتين من شقوق الجوارب شاهدين على اخلاصها وما عانته من عذاب والام. قالت فجأة برعب وندم:
- لكن آرمان...

فقد قفزت الى ذهنها، وهي في ذروة سعادتها، صورة شقيقها الحبيب آرمان. الذي من أجله أرتكبت تلك الخطيئة الكبيرة. فقال برقة.
- أوه! لا تخافي على آرمان يا حبيبتي. الم اعدك باعادته اليك سالماً؟ هوودو تورناي والاخران على سطح «حلم اليقظة» الان.
فشهقت متسائلة:
- لكن كيف؟ لا افهم.
فقال بضحكته شبه الخجولة شبه البلهاء اللطيفة:
- أجل، المسألة بسيطة يا عزيزتي. تلاحظين! عندما وجدت ذلك الحيوان شوڤلان يريد الالتصاق بي مثل الديدان الطفيلية قلت لنفسي ان احسن شيء افعله للتخلص منه هو ان اخذه معي. كان يجب ان اتصل بآرمان والاخرين بشكل من الاشكال، فالطرق كلها مراقبة والكل يبحثون عن خادمك المطيع. كنت اعرف، عندما هربت من بين اصابع شوڤلان في نزل «القط الرمادي»، انه سينتظرني هنا في الاحوال. فاردت ان أراقبه وما يفعل. فالعقل الانكليزي لا يقل كفاءة عن العقل الفرنسي باية حال.

بل لقد اثبت انه اكفأ، وامتلأ قلب مرغريت فرحا واعجابا حين مضى يروي لها الطريقة الجريئة التي انقذ بها اللاجئين تحت سمع شوڤلان وبصره. قال بمرح:
- كنت ادري انهم لن يعرفوني بثياب اليهودي العجوز القذرة.
كنت قد قابلت روبين غولدشتاين في كاليه مساء، ولقاء بضع قطع ذهبية اعارني ثيابه القذرة واعطاني عربته وحصانه الهزيل ووعدني بان يختفي عن الانظار طوال هذه الفترة.
شهقت بخوف:
- آه، لو كان شوڤلان اكتشفك!... كنت بارعا في التنكر... لكنه

شديد الملاحظة.
فرد عليها بهدوء:
ـ سحقاً له! اذن لكانت اللعبة انتهت.
تم اضاف بنبرة اسى تخللت صوته الفتي البهيج:
ـ كان علي ان اخاطر. انا اعرف الطبيعة البشرية جيدا واعرف هؤلاء الفرنسيين ظاهرا وباطنا. هم يشمئزون من اليهودي الى حد انهم يبتعدون عنه عدة خطوات دائما.. ووالله!... اظنني نجحت في جعل منظري يدعو للاشمئزاز الى اقصى حد ممكن.
سألته بلهفة:
ـ أجل! وماذا بعد؟
ـ ثم بدأت بتنفيذ خطتي الصغيرة: اي، كنت في البداية عازما على ترك كل شيء للصدفة، غير اني، حين سمعت شوڤلان يصدر اوامره للجنود، قلت لنفسي ان الحظ قد ابتسم لي اخيرا. اعتمدت على طاعة الجنود العمياء. امرهم شوڤلان، مع التهديد بالاعدام، بان لا يتحركوا أو يحدثوا صوتا الى أن يأتي الانكليزي الطويل. ديغا كان قد شد وثاقي والقى بي بجوار الكوخ. ولم يلتفت الجنود الى اليهودي الذي نقل المواطن شوڤلان بعربته الى هذه البقعة. نجحت بفك الحبل عن يدي. انا احمل ورقا وقلما معي حيثما ذهبت فاسرعت اكتب بعض التعليمات المهمة على قصاصة.
نظرت من حولي ثم زحفت الى الكوخ تحت سمع الجنود وبصرهم. لم يحركوا ساكنا، كما امرهم شوڤلان تماما، فرميت الوريقة داخل الكوخ من خلال شق في الجدار، وانتظرت. طلبت في الوريقة من اللاجئين مغادرة الكوخ بلا ادنى صوت، وهبوط الحافة الصخرية زحفا والاتجاه يسارا الى الخليج الاول واعطاء اشارة معينة

ليأتي قارب اليخت الذي ينتظرهم في عرض البحر فيأخذهم. لقد نفذوا تعليماتي بحذافيرها لحسن حظهم وحظي. الجنود الذين رأوهم لم يجرؤوا على مخالفة اوامر شوفلان. فلم يتحركوا من اماكنهم! انتظرت حوالي نصف ساعة. وعندما علمت ان اللاجئين وصلوا سالمين ارسلت الاشارة التي سببت كل تلك الفوضى!

تلك هي القصة كلها. بدت بسيطة ولم تملك مرغريت الا الاعجاب بهذه الفطنة المدهشة وهذه الجرأة ورباطة الجأش اللتين لا حدود لهما ولولا هما لما امكن تنفيذ هذه الخطة الجريئة.

قالت غاضبة وهي تستعيد ذكرى الاهانة الفظيعة:

ـ لكن اولئك الاوغاد ضربوك!

فقال برقة:

ـ طيب! ما في اليد حيلة (أولا مفر من ذلك) كان لابد من البقاء هنا، بجانب زوجتي التي كان مصيرها معلقا في تلك اللحظات.

اضاف بمرح:

ـ تباً للحياة! لا تخافي شوفلان لن يخسر شيئاً بالانتظار. أؤكد لك! انتظري حتى أجيىء به الى انكلترا! لا! سيدفع ثمن ضربي بفائدة مركبة.. اعدك بذلك.

ضحكت مرغريت. ما أحلى ان تكون الى جانبه وتسمع صوته البهيج وتنظر الى تلك الغمزة الودية في عينيه الزرقاوين، وهو يمد ذراعيه القويتين كأنه يريد الامساك بذلك العدو والانتقام منه بما يستحق.

وفجأة تملكها الذعر وشحب وجهها وخمد بريق عينيها. فقد سمعت وقع اقدام متلصصة اتية من الاعلى وتدحرجت حجارة من اعلى الصخور الى الشاطىء. همست برعب وتحفز:

ـ ما هذا؟
فأرسل ضحكة مرحة وغمغم :
ـ أوه! لا شيء يا عزيزتي. مسألة بسيطة يبدو أنك نسيتها. . . صديقي فوكس. . .
فقالت بلهفة :
ـ سير آندرو!
الحق انها نسيت تماماً رفيق الدرب والصديق الصدوق الذي وثق بها ووقف الى جانبها في ساعات محنتها وعذابها. تذكرته الان في وقت متأخر وشعرت بتأنيب ضمير.
قال السير بيري بمرح :
ـ اي! نسيته. أليس كذلك يا عزيزتي؟ لحسن الحظ التقيت به بالقرب من «القط الرمادي» قبل تناولي العشاء الممتع مع صديقي شوڤلان. ما اغرب الحياة. على أية حال عندي حساب طويل مع هذا المارق (**) الشاب. حين قابلته ارشدته الى طريق طويل للغاية، طريق ملتو، لا يفكر به رجال شوڤلان أبداً، يوصله الى هنا في نفس الوقت الذي نحتاج فيه اليه. ما رأيك يا إمرأتي الصغيرة؟
فسألته مرغريت بدهشة شديدة :
ـ وأطاع أمرك؟
ـ بلا كلمة أو سؤال. ها هو قادم. ظل بعيدا عندما لم أكن اريده وها هو يصل الان في الوقت المناسب. آه! سيكون نعم الزوج للصغيرة سوزان الجميلة.
في تلك اللحظة انحدر السير آندرو فوكس من الصخرة نازلاً بحذر.

(**) المارق : الخارج على الطاعة.

وتوقف مرة او اثنتين ليصغي الى الكلمات الخافتة التي ستدله على مخبأ بلاكني . أخيراً غامر ونادى بحذر:

ـ بلاكني ! بلاكني ! أنت هنا؟

وفي اللحظة التالية دار حول الصخرة التي كان السير بيري ومرغريت متكئين اليها، وحين وقع نظره على الشخص الغريب الملتف بقفطان اليهودي وقف فجأة وقد استولت عليه الحيرة. الا ان بلاكني بادر الى الوقوف قائلا بضحكته البلهاء اللطيفة :

ـ ها أنذا، يا صديقي، ما زلت حياً! ولو أني ابدو مثل فزاعة قبيحة بهذه الاشياء اللعينة.

هتف السير اندرو بدهشة عظيمة لما تبين ملامح زعيمه :

ـ يا لله! من بين كل الـ. . .

رأى الشاب مرغريت فكتم ضاحكا كلمات المداعبة اللاذعة التي اوشكت ان تفلت من شفتيه لرؤية السير بيري الانيق في ذلك الرداء الغريب القذر.

فقال بلاكني بهدوء :

ـ أجل! من بين كل الـ. . . . احممم! . . . يا صديقي! لم يسنح لي الوقت بعد لاسألك : ماذا تفعل في فرنسا بينما امرتك ان تبقى في لندن؟ عصيان اوامر؟ ماذا؟ انتظر حتى تخف الام كتفي ووالله سترى اي عقاب ستنال.

فقال السير اندرو بضحكة مرحة :

ـ اللعنة، اللعنة! سأتحمله، ما دمت انت حيا. . . . أكنت تنتظر مني ان اترك الليدي بلاكني تسافر بمفردها؟ لكن قل لي، بحق السماء يا رجل من أين جئت بهذه الثياب العجيبة؟ فضحك السير بيري من كل قلبه وقال :

ـ بالله عليك! غريبة بعض الشيء، أليس كذلك؟
ثم لم يلبث ان اضاف بلهجة جدية فجأة:
ـ اللعنة! مادمت قد جئت يا فوكس فيجب ان لا نضيع وقتا اطول. هذا الحيوان شوڤلان قد يرسل بعض رجاله لاحتجازنا هنا.

كانت مرغريت من شدة السعادة ما جعلها تود ان تبقى هنا مع زوجها الى الابد تسمع صوته وتسأله مئات الاسئلة. الا انها ذعرت لذكر أسم شوڤلان وخافت على حياة الانسان العزيز الذي كانت مستعدة للتضحية بحياتها في سبيله.

سألت بلهفة:
ـ لكن كيف نعود والطرق من هنا الى كاليه تعج بالجنود؟ و. . .
فقال:
ـ لن نعود الى كاليه يا حبيبتي، بل الى الجهة الاخرى من رأس «الانف الرمادي»، على بعد اقل من نصف فرسخ من هنا. قارب اليخت ينتظرنا هناك.
ـ قارب «حلم اليقظة»؟
فأجاب بضحكة مرحة:
ـ نعم. حيلة صغيرة اخرى من حيلي. نسيت ان اخبرك اني حين القيت بالوريقة في الكوخ اضفت اليها وريقة الى ارمان اوعزت له ان يتركها في الكوخ، هي التي جعلت شوڤلان ورجاله يسرعون باقصى ما يستطيعون عائدين الى «القط الرمادي» لاقتناصي. اما الوريقة الاولى فكانت تحمل تعليماتي الحقيقية، بما فيها تعليماتي الى بريغز العجوز. فقد أوعزت اليه أن ينطلق الى عرض البحر ثم يتجه غرباً. حتى اذا ابتعد عن مدى الرؤية من كاليه ارسل القارب الى خليج صغير وراء الانف الرمادي مباشرة يعرفه كلانا. هناك ينتظرني الرجال. عندنا اشارة متفق

عليهـا. فنصـل كلنـا الى السفينـة بسلام، بينما يظل شوڤلان ورجاله يراقبون الخليج «المقابل لنزل القط الرمادي».
حاولت مرغريت الوقوف على قدميها الا انها عجزت فقالت وهي تئن عاجزة:
- الجهة الاخرى من «الانف الرمادي»؟ . . . لكن انا. . . . أنا لا اقدر على المشي يا بيري. فقال ببساطة:
- سأحملك يا عزيزتي. اعمى يقود اعرج. . . تعرفين.
ابدى السير اندرو استعداده للمساعدة في نقل الحمولة الثمينة، الا ان السير بيري ما كان ليسمح بذراعين غير ذراعيه بحمل حبيبة القلب، قائلاً لرفيقه الشاب:
- عنـدمـا تصـلان بسـلام الى ظهـر اليخت، ولا تعـاتبني المدموزيل (الانسة) سوزان بنظراتها عندما اصل الى انكلترا، عندئذ فقط يحق لي ان استريح.
ولف جسد مرغريت المنهوك المسكين بذراعين قويتين، رغم كل الارهاق والاذى ورفعها عن الارض كما يرفع ريشة.
وابتعد السير آندرو بذكاء عن مدى السماع. تاركا الحبيبين يتحدثان - أو يتهامسان - احاديث لم يسمعها حتى نسيم الخريف بعدما مال الى السكون.
نسي بيري كل تعبــه. كان كتفـاه متـورمـين من الضرب، لكن عضلات الرجل تبدو مصنوعة من فولاذ وطاقته تفوق طاقة البشر. كانت مسيرة نصف فرسخ مرهقة على ارض صخرية وعرة، الا ان شجاعته لم تخنه وعضلاته لم تعرف الكلل. سار على الارض الوعرة. . . بخطى ثابتة وذراعاه القويتان تحيطان بحمله الثمين.
لا شك انها، وهي نائمة على كتفه بهدوء وسعادة، كانت تغفو حينا

وتتـطلع في ضوء الفجـر الباهت الى الوجه الطلق والعينين الزرقاوين الخـاملتـين، الضـاحكتين أبداً، المشرقتين بابتسامة ودود. وهمست له بأشياء كثيرة خففت عنه عناء الطريق وكانت كالبلسم الشافي لجراحه.

بدأ ضوء القمر يلوح في الشرق حين وصلوا أخيراً الى الخليج الصغير خلف «الانف الرمادي». هناك كان القارب في الانتظار: لدى اشارة من السير بيري جاء الى الشاطىء ونزل منه اثنان من البحارة الاشداء ليتشرفا بحمل سيدتهم الى القارب.

بعد نصف ساعة كانوا على ظهر اليخت «حلم اليقظة». ولم يستغرب البحارة، الذين نذروا انفسهم لخدمة سيدهم، لرؤيته يصعد الى السطح بهذا الشكل الغريب من التنكر.

كان آرمان سان جيست واللاجئون الاخرون ينتظرون بلهفة قدوم منقـذهم الشجـاع. لم يبق ليستمع عبارات الحمد والشكر، بل اخذ طريقـه الى مقصـورتـه باسرع ما يمكن، تاركـاً مرغريت سعيدة كل السعادة بصحبة شقيقها.

وكـان كل ما في اليخت «حلم اليقـظة» ينـطق بحب السير بيري بلاكني للاناقة والترف، ومع وصولهم الى دوفر كان بيري قد ارتدى بعض ثيابه الفاخرة التي يحتفظ دائماً بكمية منها على ظهر اليخت.

الصعوبة كانت في العثور على زوج حذاء لمرغريت. وكم كانت فرحة نائب الضـابط عظيمة حين وجد أن سيدة اليخت تستطيع لنزول الى الشاطىء الانكليزي منتعلة احسن زوج حذاء عنده.

وما عدا هذا فهو صمت ـ وفرح لعودة هؤلاء الناس الذين تحملوا كل هذا العذاب، ليجدوا أخيراً ما ينشدون من سعادة عظيمة ودائمة.

على ان الأخبار تقول ان الليدي بلاكني كانت، بلا جدال، أجمل إمرأة في حفلة زفاف السير آندرو فوكس على الانسة سوزان دوتورناي دو

باسريف، التي شرفها سمو ولي العهد بالحضور، وان الثياب التي ارتدها السير بيري بلاكني بالمناسبة كانت حديث المجتمع الراقي اللندني اياما عديدة.

حقيقة اخرى ان المسيو شوڤلان، المندوب السامي لحكومة الجمهورية الفرنسية، لم يحضر تلك الحفلة ولا اية مناسبة اجتماعية في لندن بعد حفلة اللورد غرينڤيل الساهرة المعروفة.



رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١١٨) لسنة ١٩٩١


دار الحرية للطباعة
بغداد



وزارة الثقافة والاعلام
دار ثقافة الاطفال
سلسلة مكتبتنا



السعر ۱,۲٥۰ دينار